

حِکْمٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ

الإمام الرِّبَّانِي

رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ

عثمان نوري طوبش



دار الفکر



اسطنبول ۱۴۳۸ھ / ۲۰۱۷م



إسطنبول: ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م

إسم الكتاب باللغة التركية: IMAM-I RABBANI

إسم الكتاب باللغة العربية: الإمام الرباني

الترجمة للعربية: خليل عوروت.

مراجعة وتصحيح وتدقيق: أرسين إشجي أوغلو / فاطمة إشجي أوغلو.

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٦٠٥٣٠٢٢٣٩٨

Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم



العنوان:

► Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi

Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C

Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

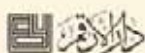
E-mail : info@islamicpublishing.net

Web site : www.islamicpublishing.net

حِكْمٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ

الإمام السرباني رَحِمَهُ اللَّهُ

عَمَّا نُوْرِي طُوْبًا





مَقَالَةٌ

الحمد لله الذي شرفنا بنعمة الإسلام والإيمان،
ورفعنا إلى مستوى خطابه المتمثل بالقرآن الكريم،
وجعلنا من أمة نبي الهداية والإرشاد سيدنا محمد عليه
الصلاة والسلام الذي كان بدوره التفسير الحي والفعل
للقرآن العظيم.

والصلاة والسلام على قدوتنا ومقياس استقامتنا
في الدنيا، وشفيعنا في الآخرة فخر الكائنات سيدنا
محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آل بيته وأصحابه
الطيبين الطاهرين!..

إن الشخصيات الرفيعة الذين يُتخذون مثلاً وقُدوة
بعد النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام هم
العلماء والعارفون من أولياء الله ﷻ، وذلك لأنهم
يُعدون بمثابة ورثة النبي عليه الصلاة والسلام بعلمهم،
وعرفانهم، وأخلاقهم المثالية.



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وإن أهل الله هم المؤمنون من العلماء والعارفين
والصادقين المتحملين لمسؤولية الأمة:

- الذين مزجوا ظاهر الدين وباطنه ضمن مبادئه
وقواعده واصطبغوا بهذا المزيج

- والذين قطعوا المراحل والدرجات القلبية على
طريق الزهد والتقوى ووصلوا إلى كمال السلوك
والعمل

- والذين وسعوا مداركهم ليحيطوا بآفاق العالمين
الدنيا والآخرة، ونالوا الذة الإيمان وعمق الأحاسيس
والمشاعر

- والذين وجهوا كل جهودهم لتخليص الإنسانية من
الخصال الخبيثة والسيئة ومن الرغبات والشهوات
النفسية، وإيصالهم إلى مرتبة الأخلاق الحميدة
والكمال الروحي.

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^١

يقول الشيخ الخواجه عبيد الله أحرار في تفسير هذه الآية:

(إن أمر "كونوا مع الصادقين" الذي ورد في الآية الكريمة يعبر عن الاستمرار في ملازمة الصادقين. وإن ذكر المعية مطلقةً يدل على وجهيها: الحقيقي "الفعلي" والحكمي، فالوجه الحقيقي للمعية هو حضور مجالس الصادقين المادي بحضور القلب، وأما الوجه الحكمي للمعية فهو تخيل أحوالهم واتخاذها مثلاً وقدوة لنا حتى في غيابهم، واستحضار نصائحهم ومواعظهم المشتملة على الحكم والعبر).^٢

إذاً، فهذا يعني بأن الخطوة الأولى في طريق التحول إلى إنسان صادق هي صحبة الصادقين، أي مد أواصر الألفة والمحبة معهم. فالتحول إلى إنسان صادق هو نتيجة طبيعية لهذه الحالة من الملازمة والمعية المصبوغة بالمحبة.

وإننا بدورنا نحاول جهد استطاعتنا بهذا العمل المتواضع والبسيط أن نكون بصحبة ومعية عبد من عباد



وَسُبِّحَ اسْمُهُ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

الله تعالى الصالحين والصادقين، ألا وهو الإمام الرباني
أحمد السرهندي ولو بصورة غيائية وحكمية.

يقول الله ﷻ في سورة مريم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^٣

فالله سبحانه وتعالى يكرم العباد الذين أحبهم بسر
من المحبة شبيه بالمغناطيس حيث يجذب إليه كل قلب
فيه حظ من جوهر هذا السر.

وفي الواقع فإن كل إنسان يدخل إلى هذه الدنيا
الشبيهة بخان أو فندق على طريق المسافرين فيمكث
فيها مدة من الزمن ثم يمضي، وبعد فترة تُمحى آثاره
ويُنسى حتى اسمه. إلا أن الله ﷻ يستثني من هذه الحالة
أحباءه وأهله، حيث يبقى ذكرهم قائماً بين الناس.

فأولياء الله أولئك لا يصبحون جزءاً من الماضي
ويُلَقَّون في غياهب النسيان حتى بعد أن تبلى أجسادهم
الفانية. إذ ما أكثر أهل الحق الذين تستمر خدماتهم



وآثار أعمالهم بيننا في هذه الدنيا وهم في عالم البرزخ، وترشدنا وتنير دروبنا. وإنهم سوف يستمرون أحياء في القلوب حتى بعد وفاتنا أيضاً. فأعمارهم الإرشادية تجتاز الأزمان والعصور والبلدان بنسبة قربهم إلى الحق ﷻ. وإذا ما أردنا إمعان النظر في هذا الأمر ومدى واقعيته وإثباته فإن عدد زوار أضرحة ومقامات كبار الأولياء يُعد دليلاً كافياً في هذا الخصوص.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحادثة التي نوردتها فيما يلي تُعد خير دليل ومثالاً على المحبة التي يبثها الله تعالى في القلوب تجاه الأولياء الصالحين الذين أحبهم: يروى أن الخليفة العباسي هارون الرشيد كان بين الحين والآخر يقيم في مدينة الرقة التي كانت من ضمن دولته المترامية الأطراف. فقدم مرة عبد الله بن مبارك الذي يُعد أحد كبار أولياء الله الصالحين الرقة وبها هارون الرشيد فلما شارف على دخولها احتفل الناس به وخرجوا لملاقاته وازدحموا حوله حتى خلت المدينة إلا من الخليفة وبعض رجاله وأهل بيته. فأشرفت إحدى جوارى هارون الرشيد من قصر هناك فقالت:

- ما للناس؟

فقيل لها:

- قدم رجل من علماء خراسان يقال له عبد الله بن المبارك فانجفل الناس إليه.

فقالت الجارية:

- هذا هو الملك، لا ملك هارون الرشيد! لأنه في ملك هارون لا يجتمع حتى العمال إن لم يضطروهم العسس إلى ذلك!

وبالفعل فإن هذا هو الملك الحقيقي... وذلك لأن الملك والسلطان المادي سوف يزول وينتهي حتماً يوماً ما. إلا أن سلطنة وملك القلب يدوم ويستمر في القلوب بالزخم والوهج ذاته حتى بعد الموت. فالبشرية تشعر بالحاجة الدائمة إلى ملوك وسلاطين القلب أولئك، وتفتش عنهم في كل مكان، وتسير على أثرهم النير المضيء.

فهناك شعور عجيب واستثنائي بالتعلق والارتباط

بأصحاب وأهل الحق على الرغم من مضي قرون طويلة



على وفاتهم من أمثال بهاء الدين النقشبندي، وعبد القادر الجيلاني، ويونس إمره، ومولانا جلال الدين الرومي، وعزيز محمود هدايي وغيرهم الكثير. والله سبحانه وتعالى قد أبقي على ذكر العلماء الكبار الذي قدموا خدمات جليلة للإسلام بين الناس، مثل كبار المحدثين، والمفسرين، وأئمة المذاهب الفقهية، وأهل التصوف. ولا شك أن أحد الملوك والسلاطين الروحانيين الذين تربعوا على عرش قلوب المؤمنين واستمروا أحياءً فيها بعد وفاتهم هو الإمام الرباني. فنتيجة للحياة النموذجية التي قضاها ذاك الشيخ الجليل المولود في بلدة سيرهند التابعة للهند قبل ما يقارب الأربعة قرون ونيف بالكفاح والدفاع عن عقيدة التوحيد فقد حُبب بتقدير من العلي القدير إلى قلوب جميع المسلمين، وتجاوزت محبته خلال مدة قصيرة حدود الهند لتنتشر إلى كافة أنحاء الدنيا حتى يومنا هذا.

إن الكثير من طرق التصوف وعلى رأسها الطريقة النقشبندية تعتمد على إرشادات الإمام الرباني وتنهل من معين روحانيته. فذاك المرشد العظيم يُعد مرجعاً

وَسَيُجَنَّبُكَ

حَكَمِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

ومقياساً حقيقياً وفعلياً للأمة المحمدية حتى بعد انقضاء عمره الفاني المادي. إنه حتى وهو في عالم البرزخ مستمر منذ الفترة الزمنية التي عاش فيها وإلى الوقت الحاضر والمستقبل كمشعل هداية واستقامة في خدمة التبليغ والإرشاد.

لقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

"المرء مع من أحب".^٤

فإذا ما شعرنا بالمحبة تجاه الأولياء الصالحين الذين هم أحبباء الحق سبحانه وتعالى، ورغبنا بالحشر معهم يوم القيامة فلا بد أن نجهد قدر استطاعتنا لنيل نصيب من إيمانهم، وأخلاقهم الحسنة، واستقامتهم. وذلك لأن من علامات المحبة الصادقة والحقيقية هي التحلي بحال المحبوب.

وبناء على ذلك ينبغي علينا أن نقارن أحوالنا بحال أهل الحق على الدوام ونتخذهم مقياساً حقيقياً لنا، وأن نهمل الأحاسيس من معين وينبوع قلوبهم.



أيها القراء الأعزاء!

لقد رغبتنا في هذا الكتيب الذي يشكل جزءاً لكتاباتنا المنشورة تحت عنوان رئيسي "حكم من أولياء الله" في مجموعة آلتن أولوك، أن نقوم بجولة تفكيرية وتأملية في الحكم الكامنة داخل عوالم قلوب أهل الحق.

وينبغي أن لا ننسى بأننا اليوم أبناء، وطلبة، وأصحاب لأهل الله الذين ارتحلوا من هذا العالم الفاني إلى العالم الأبدى والذين وجهوا العالم بمواعظهم وإرشاداتهم من أمثال بهاء الدين نقشبندي، وعبد القادر الجيلاني، ومولانا جلال الدين الرومي، ويونس إمره، وهدائي، والإمام الرباني السرهندي. وما نرجوه ونسأله من الحق سبحانه وتعالى أن يجعل لنا على وجه الأرض عندما نكون في القبر بانتظار يوم القيامة بعد انتقالنا من هذه الحياة الفانية، أن يجعل لنا أصحاباً وأحباباً يذكروننا بالخير بما يبعث السرور والسعادة في أرواحنا. إنها لسعادة عظيمة أن يفلح المرء بترك صدى وأثر طيب اليوم للأجيال التي سوف تأتي من بعدنا...

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُوَفِّقَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
لِلسَّيْرِ عَلَى نَهْجِ أَحِبَّائِهِ، وَلِلْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي
تَنَالُ رِضَاهُ؛ وَأَنْ يَحْشُرَنَا جَمِيعاً فِي الْآخِرَةِ مَعَ عِبَادِهِ
الَّذِينَ أَحَبَّهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ. آمِينَ!..°

عثمان نوري طوبّاش

تشرين الثاني / نوفمبر ٥١٠٢

أسكودار / إسطنبول

٥ أوجه الشكر إلى السيد محمد عاكف كوناي الذي بذل جهوداً كبيرة
في إعداد هذا الكتيب، وأسأل المولى ﷻ أَنْ يجعل هذه الجهود صدقة
جارية في صحيفة أعماله.

الإمام الرباني
أحمد الفاروقي السرهندي

مرحمة الله عليه

١٥٦٤-١٦٢٤



الإمام الرباني

أحمد الفاروقي السرهندي رحمته الله

١٥٦٤-١٦٢٤ م

ولد الإمام الرباني رحمته الله في بلدة سرهند التابعة لدولة الهند في شهر شوال سنة ٩٧١ هـ. ويُلقب بـ "الفاروقي" لأن نسبه يعود إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. كان والده السيد عبد الأحد صاحب فضل رفيع، ومن أهل العلم والعرفان، حيث كان مجازاً من الطريقة الجيشتية والقادرية، و متمماً للظاهر والباطن فيهما.

لقد بدأ أحمد السرهندي تعليمه الأولي بحفظ القرآن الكريم، وصار حافظاً له خلال فترة زمنية قصيرة. تلقى أغلب علومه من والده، مع أخذه لجزء منها من كبار علماء عصره. وبعد تلقيه العلوم من أبيه والعلماء المحيطين به توجه إلى سيالكوت التي تُعد مركزاً علمياً كبيراً. وأخذ هناك العلوم العقلية والنقلية على يد مختلف العلماء، وأولى السرهندي أهمية خاصة وكبيرة لعلوم التفسير، والحديث، والفقه.



وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

ولما بلغ السرهندي السابعة عشر عاماً من عمره كان قد قطع أشواطاً متقدمة وكبيرة في تحصيل العلوم الظاهرية فعاد إلى أبيه وبدأ بإلقاء الدروس إلى جانبه. وفي هذه الفترة أخذ الإجازة في التفسير والحديث من قاضي بهلول بداخشاني.^٦

وعندما بلغ الثامنة عشرة أو العشرين عاماً من عمره ألف كتاباً أسماه "إصابة النبوة" تصدى به علماء البلاط الغافلين المنحرفين نحو الضلال الذين أبدوا إعجاباً فريداً بالفلاسفة وأقاموهم في مرتبة أعلى من الأنبياء تقريباً. فتناول فيه الأدلة العقلية والنقلية التي تثبت أهمية النبوة ولزومها. وألف كتباً أخرى في هذه الفترة.

وبعد مدة من الزمن انتسب إلى أبيه وأخذ يداوم على حضور مجالسه بصورة مستمرة. فكثف كل جهوده واهتمته على التربية التصوفية. ولازم والده ملازمة تامة حتى يتفادى التقصير في القيام بخدمته والبر به، فلم يذهب إلى مكان آخر أبداً. توفي والده عبد الأحد سنة

٦ محمد هاشم الكشمي: بركات (زبدة المقامات)، ص ١٢٨؛ بدر الدين السرهندي: حضرات القدس، ٢، ٣١ - ٣٢.

١٠٠٧هـ / ١٥٩٩م. وكان قبل وفاته بمدة قصيرة قد أعطى الخلافة لابنه الإمام الرباني أحمد الفاروقي.

وبعد وفاة والده خرج الإمام الرباني في شهر ربيع الآخر من عام ١٠٠٨هـ من بلدة سرهند قاصداً مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. كان عمره وقتئذ سبعة وثلاثون عاماً. ولما وصل إلى دلهي زار الباقي بالله بناء على نصيحة من أحد أصحابه. وبعد أن حضر مجلسه لمدة من الزمن انتسب إليه.^٧

مكث الإمام الرباني رحمته الله عند الشيخ الباقي بالله مدة تقارب الشهرين والنصف إلى ثلاثة شهور. ثم عاد إلى بلده لأن موسم الحج كان قد فات. وأخذ يعلم شيخه بالأحوال الروحية التي يمر بها من خلال المراسلة، وبعد فترة من الزمن زار أستاذه مرة أخرى، وأعطى في هذه الزيارة إجازة الإرشاد "الخلافة". وبعد أن أمضى شهرين في كنف شيخه عاد مجدداً إلى بلاده وبدأ بإرشاد الناس وفقاً لأصول الطريقة النقشبندية. أحس في هذه الفترة

٧ محمد هاشم الكشمي: بركات (زبدة المقامات)، ص ١٣٨ - ١٤٠؛

بدر الدين سرهندي: حضرات القدس، ٢، ٣٤.

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّكَ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

بنقص في الناحية الروحية والمعنوية وفكر بالانكفاء
والانزواء بنفسه، إلا أن إصرار مريديه دفعه إلى التراجع
عن فكرته ومتابعة الإرشاد.^٨

في زيارته الثالثة لأستاذه صادفه في الطريق فأبدى
اهتماماً وحفاوة بالغة به وأحال إليه مهمة تربية الكثير من
مريديه.

على الرغم من نيل الإمام الرباني الكثير من الأحوال
والفضائل السامية والرفيعة إلا أنه كان يتصرف أمام
شيخه بغاية الأدب والتواضع. فذات مرة كان أستاذه قد
أرسل أحد التلاميذ في طلب الإمام، ولما سمع الإمام
الرباني بدعوة أستاذه له امتنع لونه في الحال وبدأ عليه
حالة من الارتجاف التي تظهر على الشخص المتعرض
لخوف وفزع شديد. وكان أستاذه يبادل له المعاملة ذاتها،
حيث كان يظهر له احتراماً ومحبة بالغة.^٩

وبعد وفاة الشيخ الباقي بالله استمر الإمام الرباني
رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْإِرشاد في سرهند، وأخذ يبعث بالرسائل

٨ الإمام الرباني: المکتوبات، ١، ٧٢٦، رقم ٢٣٤، ٢، ٣١٩، رقم ٢٩٠.

٩ محمد هاشم کشمیری: برکات (زبدۃ المقامات)، ص ١٤٤، ١٤٨ - ١٥٢.



إلى مريديه القاطنين في أماكن بعيدة عنه، وإلى رجال الدولة. كان يتناول في الرسائل التي يبعث بها إلى تلامذته المسائل الدقيقة للتصوف، وأما الرسائل التي كان يوجهها إلى رجال الدولة فقد كان يركز فيها بشكل أكبر على أسس ومبادئ الإسلام، وعلى المواضيع العامة مثل تلك المتعلقة بمذهب أهل السنة.

لقد كان الإمام الرباني يذهب كل عام في ذكرى وفاة أستاذه المصادفة لشهر جمادى الآخرة لزيارة قبره، ثم يعود مجدداً إلى سرهند.^{١٠}

علاقاته مع السلاطين

لقد كان سلطان بابور أكبر شاه في البدء مسلماً متديناً وصاحب عقيدة فطرية صافية وسليمة. وكان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة. إذ كان قد حرم من المعرفة والتحصيل العلمي بسبب الأحوال السياسية والهجرات التي نتجت عنها. ولهذا فقد انحرف نحو الأباطيل والأفكار الضالة تحت تأثير العلماء المحيطين

به والذين كان كل همهم الوصول إلى المصالح المادية الدنيوية. فكان رجال العلم هؤلاء يحاولون التقرب إلى السلاطين ورجال الدولة، وكانوا يبذلون كل ما بوسعهم للظهور لطفاء ومقبولين أمامهم، فكانوا يتسببون بإثارة وإيقاظ الكثير من الشكوك والشبهات في الأذهان تجاه الإسلام. وكانوا يضللون الأغنياء عن طريق إثارة المسائل الاختلافية والتركيز عليها.^{١١}

١١ الإمام الرباني: المكتوبات، ٣، ٣٠، رقم ٦٧. يقول الإمام الرباني رحمته الله عن مثل هؤلاء العلماء:

"يجب أن يعلم أهل الإسلام بأن مساعدة وإعانة السلطان المسلم هي دين في ذمتهم. وهذا يقتضي توجيه السلطان نحو تقديس الشريعة وتقوية الدين. والمساندة المقدمة للسلطان تكون بشتى الوسائل سواء بالقول أو بالفعل. وإن المساعدة الأكثر إلحاحاً وعجلة هي تلك القولية، وأفضل هذه المساعدة القولية هو بيان المسائل الشرعية، ومبادئ العقيدة بما يتوافق مع القرآن، والسنة، وإجماع الأمة. وبذلك يُحال دون تمكن المضللين والمبتدعة الذين يظهرون في المجتمع أحياناً من سد الطريق وإفساد أحوال الناس. إن هذا النوع من العون والمساعدة مخصوص بعلماء أهل السنة الذين يضعون الآخرة نصب أعينهم. وذلك لأن صحبة العلماء الذين كل همهم السعي وراء الأشياء الدنيوية وتحقيق جملة من المنافع الزائلة سم قاتل، إذ أن فسادهم يتعداهم ويسري إلى غيرهم من الناس

وبالنتيجة قام أكبر شاه الذي فقد الاستقامة الدينية بإسناد الوظائف المهمة في إدارات الدولة لغير المسلمين؛ وأدخل بعض النساء الهندوسيات إلى حرمة. وأقدم بتشجيع من المقربين إليه على إيجاد دين جديد باسم "الدين الإلهي" بذريعة التوحيد بين الإسلام والهندوسية. وتم هدم المساجد في بعض الأماكن ليشيد عوضاً عنها المعابد الهندوسية.

وبدأ أكبر شاه بإصدار أمر إلى الناس للسجود في حضرته تعبيراً عن إظهار الاحترام والتبجيل له. ولم تكن هذه الحالة تشكل مسألة ذات أهمية بالنسبة للهندوسيين،

المحيطين بهم.

وفي الواقع فقد كانت المصائب التي تحل بالأقوام في السابق إنما تقع بسبب هؤلاء المفسدين. فهؤلاء هم الذين أخرجوا أضلوا السلاطين والملوك السابقين، ولم يكتفوا بتضليل الملوك فقط، وإنما أصبح هؤلاء العلماء المنحرفين السيئين قادة للفرق الضالة التي بلغت اثنتين وسبعين فرقة. فليس هناك من أحد يسري انحرافه وضلاله إلى الناس الآخرين بقدر علماء السوء. إن غالبية الجهلاء الذين يتشبهون بالمتصوفة اليوم هم بحكم علماء السوء، وذلك لأن أفكارهم المنحرفة والفسادة تؤثر على الآخرين أيضاً. (الإمام الرباني: المکتوبات، ١، ٢٤٣، رقم ٤٧).

وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

إلا أنها كانت تُعد مشكلة بالغة العظمة بالنسبة للمسلمين الصادقين المخلصين. وكان أهل الأهواء والدنيا من اللاهثين خلف المنافع، وعلماء الغفلة والسوء الذين يسعون إلى كسب رضا وود السلطان يصدرون الفتاوى بجواز السجود في حضرة السلطان مبررين الأمر بأن السجود بنية السلام والاحترام وليس بنية العبادة.

فذهب الإمام الرباني رحمته الله إلى العاصمة آغرا "أكبر أباد" فالتقى ببعض المقربين إلى السلطان، وقال لهم:

- إن السلطان قد وقع في معصية الله تعالى ورسوله، فذكروه بأن ملكه وسلطانه سوف يتصدع وينهار. فليتب من معصيته، وليعد إلى سلوك سبيل الله ورسوله!"

لقد كان بعض رجال الدولة ممن يشغلون مناصب عالية ومرموقة يظهرون احتراماً كبيراً للإمام الرباني رحمته الله، وقد بذلوا جهوداً كبيرة من أجل إعادة السلطان إلى الطريق القويم، إلا أن السلطان كان غارقاً في أمواج الدين الجديد الذي أوجده، ولم يُعر أي اهتمام بالنصائح التي قدمها له هؤلاء الرجال. وبصورة مفاجئة أخذ منجمو أكبر شاه يتنبؤون بقرب انهيار حكمه وملكه،

فأصيب السلطان بحزن شديد نتيجة لهذه التنبؤات، وفوق ذلك فقد رأى حلماً عجبياً في تلك الأيام. ونتيجة لذلك فقد أصدر قراراً مفاده:

- من أراد اعتناق الإسلام فليفعل، ومن أراد اعتناق الدين الإلهي فليفعل. فلا إكراه ولا إجبار لأحد من الناس في اعتناق ما لا يريده.

نُصبت في أحد الاحتفالات خيام لأتباع الدين الإلهي، وأخرى لأتباع الإسلام. وكانت خيام أنصار الدين الإلهي الجديد مصنوعة من أفخر وأجمل أنواع القماش، وفيها موائد تتضمن أطيب وألذ أصناف الطعام والشراب والفاكهة، وأما خيام المسلمين فكانت متواضعة من حيث القماش والطعام، وتظهر عليها علامات الفقر والحرمان.

فجاء الإمام الرباني رحمه الله مع أتباعه إلى خيام المسلمين ونزلوا فيها. ثم أخذ الإمام حفنة من التراب بيده وألقى بها تجاه خيام أنصار الدين الإلهي، فهبت عاصفة شديدة على تلك الخيام، وتعرض أكبر شاه وأنصاره للحظات عصيبة، بينما بقيت خيام المسلمين

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

هادئة ولم يتعرض لشيء مما أصاب السلطان وأنصاره. وأمام هذا التحذير الإلهي الجلي والصريح تراجع بعض أركان الدولة وضباطها عن مواقفهم، وأصبحوا مريدين للإمام الرباني.^{١٢}

توفي أكبر شاه في عام ١٦٠٥ وتولى العرش من بعده ابنه جيهانجير. سُر الإمام الرباني كثيراً بهذه الحالة، لأنه كان يعتقد بأن جيهانجير إنسان متمسك بالإسلام. أرسل الإمام الرباني الكثير من مريديه كخلفاء له إلى مناطق مختلفة من البلاد من أجل القيام بمهمة التبليغ والإرشاد. وعلى سبيل المثال تلميذه مير محمد نعماني، فقد أعطاه الخلافة وأجازه ثم أرسله إلى "دكن". وقد التف حوله في تكيته المئات من الناس، حيث كانوا ينشغلون بذكر الله تعالى ومراقبته، وبتحصيل العلم. وكذلك أعطى الخلافة للشيخ بديع الدين سهارنبوري ثم بعثه في البدء إلى بلدته، ومن هناك أرسله إلى "آغرا". وبذلك فقد انضم الكثير من رجال الدولة إلى حلقات

١٢ مجدد: روضة القيومية، ١، ٢٢١ - ٢٢٧؛ محمد حليم شاركبوري: الإمام الرباني (ترجمة: علي كنجلي) قونية ١٩٧٨، ص ٢٩ - ٣٣.

الذكر والإرشاد، وتاب الآلاف من ضباط العسكر على يد الإمام الرباني رحمه الله.

أرسل الإمام الرباني رحمه الله سبعين شخصاً برئاسة مولانا محمد قاسم إلى أنحاء تركستان. وبعث بأربعين شخصاً تحت قيادة مولانا فروح حسين إلى أنحاء السعودية، واليمن، وسوريا، والأناضول. وأرسل عشرة أشخاص ممن بلغوا مرتبة الكمال برئاسة مولانا محمد صادق باتجاه كاشغار، وكذلك أرسل ثلاثين شخصاً آخرين بقيادة الشيخ أحمد بكري إلى أطراف تركستان، وبداخشان، وخراسان. لقد حقق هؤلاء الأشخاص نجاحات باهرة في الأماكن التي أرسلوا إليها، واستفادت جماهير غفيرة من الناس من علمهم وإرشادهم.^{١٣}

كان التفاف الناس حول الإمام الرباني يزداد يوماً بعد يوم. ولكثرة تجمع الناس واحتشادهم حوله كانت زيارات الأشراف وكبار الموظفين في إدارات الدولة للإمام تواجه صعوبات كبيرة بسبب الازدحام الشديد. فامتعض السلطان جيهانجير من تعلق الناس الشديد بالإمام مما دفعه إلى

وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

استدعائه في عام ١٦١٩ إلى العاصمة آغرا. وأخذ يحاسبه عن عبارات تصوفية واردة في إحدى مكتوباته، ثم اقتنع بالتوضيحات العقلية التي قدمها الإمام الرباني له.

إلا أن بعض الأشخاص المقربين من السلطان أخذوا يوغرون صدره تجاه الإمام بقولهم:

- إن هذا الشيخ لم يسجد لك سجدة التحية والسلام، وإن له الكثير من المريدين داخل الجيش. ولربما يثير في القريب فتنة في البلاد من خلال مريديه ويلحق الضرر بملكك. ولطالما أن للشيخ أحمد عدد كبير من المريدين ضمن العسكر فإنه لربما يخرج عليك ويدعي الملك لنفسه.

لقد كان أغلب وزراء السلطان وموظفو الدولة في تلك الفترة يعتنقون مذاهب باطلة. ولذلك فقد كانوا يغتاظون كثيراً من مكتوبات الإمام الرباني التي تنتقد المذاهب الخارجة والمنحرفة عن الشريعة، وتشكل رسالة مستقلة بذاتها. وهؤلاء هم الذين كانوا يحرضون السلطان أيضاً.^{١٤}



ونتيجة لكل ذلك قام السلطان جيهانجر بحبس الإمام الرباني الذي كان قد بلغ الخامسة والخمسين عاماً من عمره في قلعة "كوفاليار". واستولى على كتبه، وبستانه، وبثره، وداره، ورحل عائلته إلى مكان آخر.

فأخذ الإمام الرباني رحمته الله خلال السنة التي قضاها في القلعة يعلم السجناء هناك الإسلام ويرشدهم إلى سبيل الهداية. وقد صار سبباً في دخول البعض منهم إلى الإسلام.^{١٥}

وبسبب المعاناة والآلام التي كان يتحملها في سبيل الله ﷻ فقد كان يرتقي أكثر روحياً ومعنوياً.^{١٦}

وبعد انقضاء سنة على حبسه ندم السلطان جيهانجر على ما فعله به، وأطلق سراح الإمام بشرط "الإقامة الجبرية" في معسكر ما.^{١٧}

١٥ بداخشي: مناقب الحضرات، ٤١؛ محمد مراد قازاني: ترجمة أحوال الإمام الرباني، معرب المکتوبات (الدرر المکنونات النفیسة) مکة ١٣١٧، ١، ٥٨ - ٥٩؛ نجدت توسون: الإمام الرباني أحمد السرهندي، اسطنبول ٢٠٠٥، ص ٢٩.

١٦ الإمام الرباني: المکتوبات، ٣، ١٨٠، رقم ٥، ٣، ١٨٢، رقم ٦.

١٧ بداخشي: مناقب الحضرات، ٤١ - ٤١ ب.



وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

طلب السلطان جيهانجر من الإمام الرباني رحمته الله أن يكون مستشاره في المسائل الدينية، فناقش الإمام هذا الأمر لمدة، ولما علم صدق وإخلاص جيهانجر قبل طلبه بالشروط الآتية:

١. أن يلغي السلطان سجدة التسليم والتحية بين يديه
٢. أن يعاد بناء وإصلاح كل المساجد التي تم هدمها وتخریبها.
٣. أن تلغى القرارات التي تمنع ذبح الأبقار.
٤. أن يراعي القضاة، والمفتون، وموظفو الدولة تطبيق الأحكام الإسلامية في أعمالهم.
٥. أن يُعاد أخذ الجزية من جديد.
٦. أن تُلغى كل البدع وتُطبق أحكام الشريعة الإسلامية.

٧. أن يُطلق سراح جميع الذين سُجنوا بسبب التدين.

كما يتبين من الشروط المتقدمة فليس للإمام الرباني رحمته الله أي مطلب شخصي. إذ أن هدفه الوحيد كان تلافي التخريبات والمفاسد التي ارتكبت في عهد



السلطان السابق، والحيلولة دون تكرار تلك المفسدات والمضايقات في ظل حكم السلطان اللاحق.^{١٨}

اعتبر الإمام الرباني رحمته الله أن وجوده قريباً من السلطان فرصة جيدة وثرية من أجل التشجيع على الأسس والمبادئ الإسلامية. فأصبح يغشى مجالس السلطان ويتحدث عن المسائل الدينية، وكان الحاضرون في تلك المجالس يصغون إلى حديثه باهتمام بالغ.^{١٩}

أخذ السلطان جيهانجر الذي تعرض للانتقاد من قبل الإمام الرباني رحمته الله في الفترات الأولى لحكمه بسبب صمته عن هدم وتخريب المساجد، أخذ يبني المساجد ببركة هذه المجالس والإرشادات، وتعلق بالإسلام لدرجة أنه صار يضحى بالأبقار.

بقي الإمام الرباني رحمته الله بجانب السلطان جيهانجر لمدة أربع سنوات. وفي هذه الأثناء كان يستمر بكتابة الرسائل إلى أصحابه. وفي سنة ١٠٣٣هـ حيث أعيدت

١٨ خليل إبراهيم شيمشك: التجديد في العهد العثماني، اسطنبول ٢٠٠٤، ص ٦٦ - ٦٧.

١٩ الإمام الرباني: المكتوبات، ٣، ٣١٨، رقم ٤٣.



وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اللَّهُ تَعَالَى

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

له حريته الكاملة عاد الإمام الرباني مع أولاده الذي قدموا لزيارته إلى سرهند، وقضى السنة الأخيرة من عمره في بلده.

اتباع الشريعة قبل كل شيء

لقد بذل الإمام الرباني رحمته الله الذي كان يشاهد بقلق بالغ تسلل الكثير من البدع والخرافات إلى حياة المسلمين، بذل جهوداً جبارة في سبيل إعادة تطبيق أحكام الله تعالى. وقد كان يتناول هذه المسألة بكثافة في مجالسه، ومكتوباته، وكتبه، ويقول:

"للشريعة أقسام ثلاثة: العلم، والعمل، والإخلاص. فلا يمكن تطبيق الشريعة دون تحقيق هذه الثلاثية. ومتى ما طبقت الشريعة فحينها يُكتسب رضا الله تعالى الذي يفوق السعادة الدنيوية والأخروية معاً. إذ يقول الله تعالى:

﴿... وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾^{٢٠}

فالشريعة تؤمن كلاً من السعادة الدنيوية والأخروية معاً، وليس لنا بعد الشريعة غاية أخرى نحتاج إليها.

وأما الطريقة والحقيقة التي يعكف عليها المتصوفون فإنها ليست إلا خدمة

للشريعة، حيث أنها تكمل وتتم القسم الثالث للشريعة والذي هو الإخلاص. وعلى ذلك فيكون القصد من الطريقة والحقيقة هو إتمام الشريعة، وبالتالي فإنها ليس شيئاً غير الشريعة.

إن الأحوال، والالهامات، والعلوم والمعارف المعنوية والروحية التي تُعطى للمتصوفة أثناء السير والسلوك ليست غايات ومقاصد بحد ذاتها. وإنما على العكس، فهي أوهام وخيالات أبناء الطريقة التي خضعت للتربية، فينبغي المرور بكل هذه الأمور وتجاوزها والوصول إلى مقام الرضا الذي هو نهاية مقامات السلوك والجذب. وذلك لأن غاية اجتياز منازل الطريقة والحقيقة ليست سوى تحصيل الإخلاص الذي يُعد ضرورياً ولازماً للوصول إلى مقام الرضا^{٢١}.

العلم ضروري للإنسان. ولكن ينبغي أن يقود العلم الإنسان إلى التقوى، أي أن يبلغه إلى خشية الله ومعرفة



الله. وذلك لأنه جاء في الآية القرآنية:

﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾^{٢٢}

فينبغي على العبد العمل بعلمه، ولكن يتوجب أن يؤدي أعماله بإخلاص، لأن الأعمال لا تُقبل إلا إذا ترافقت بالإخلاص. يقول ذو النون المصري رحمه الله:

"الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العالمون، والعاملون كلهم (مغترون) إلا المخلصين! والمخلصون على خطر عظيم".^{٢٣}

والحاصل؛ فإن العلم، والعمل، والإخلاص عناصر مكملة لبعضها البعض.

كان الإمام الرباني رحمه الله يقول بأن الشريعة والتصوف لا يختلفان عن بعضهما، ولييان ذلك كان يذكر قول بهاء الدين نقشبندي:

"المقصود من السير والسلوك كون المعرفة الإجمالية تفصيلية والاستدلالية كشفية".^{٢٤}

٢٢ فاطر: ٢٨.

٢٣ البيهقي: شعب الإيمان، ٥، ٣٤٥.

٢٤ الإمام الرباني: المكتوبات، ١، ٣٤٦، رقم ٨٤.

ووفقاً لذلك فإن الطريقة هي الوصول إلى حقيقة الشريعة. وإلا فإنها ليست شيئاً متميزاً عن الشريعة والحقيقة.^{٢٥} وإن الباطن متم للظاهر ومكمل له.^{٢٦} ولهذا السبب ليس من المناسب القبول بالكشف المخالفة لظاهر الشريعة، ولإجماع علماء أهل السنة.^{٢٧} وقد كان الإمام الرباني يقول:

"إن الأحوال الروحية مرتبطة بالشريعة؛ وأما الشريعة فليست مرتبطة بالأحوال. وذلك لأن الشريعة صحيحة وقطعية، وعن صحتها ثابتة بالوحي. وأما الأحوال فهي ظنية، وهي ثابتة بالكشف وعلم الحال".^{٢٨}

"يا ولدي! اصرف الأوقات في الذكر الإلهي جل شأنه على الدوام، وكل عمل يصدر وفق الشريعة الغراء فهو داخل في الذكر وإن كان بيعاً وشراءً، فينبغي

٢٥ الإمام الرباني: معرفة اللدنية، ص ٧١، قسم ٢٥.

٢٦ الإمام الرباني: المکتوبات، ١، ٢١٩، رقم ٤١.

٢٧ الإمام الرباني: مكاشفات عينية، ص، ٢٩.

٢٨ محمد هاشم الكشمي: بركات (زبدة المقامات)، ص، ١٩٧ - ٢١٢؛

أبو الحسن الندوي: الإمام الرباني، ص، ١٨٢ - ١٨٨.



وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

مراعاة الأحكام الشرعية في جميع الحركات والسكنات لتصير كلها ذكراً، لأن الذكر عبارة عن طرد الغفلة، ومتى ما حصلت مراعاة الأوامر والنواهي في جميع الأفعال فقد تيسرت النجاة من أسر الغفلة، وحصل دوام ذكره تعالى "٢٩.

وينصح الإمام الرباني رحمته الله التوجه إلى التصوف بعد تعلم العلوم الشرعية، ويقول:

"إن المقصود من الولوج إلى التصوف هو التمكن من القيام بالأعمال الصالحة بسهولة ويسر، والقضاء على كل من الكسل، والعناد، والخصام وما شابه من الخصال الذميمة التي تصدر عن النفس الأمارة" ٣٠.

"ينبغي التوجه إلى الباطن بعد جعل الظاهر محلي ومزينا بأداء الأحكام الشرعية، لئلا يكون العمل مختلطاً بالغفلة. لأن التحلي ظاهرياً بالأحكام الشرعية بدون إمداد الباطن متعذر.

٢٩ الإمام الرباني: المكتوبات، ٢، ٥٤٠، رقم ٢٥.

٣٠ الإمام الرباني: المكتوبات، ٢، ١٧٤، رقم ٢٦٦.

وإن وظيفة العلماء الإفتاء، وشغل أهل الله العمل، والاهتمام بالباطن مستلزم للاهتمام بالظاهر، والذي يهتم بالباطن ويعجز عن الظاهر فهو ملحد وزنديق، وإن أحواله الباطنية التي بلغها ما هي إلا استدراجات له.^{٣١} وعلامة صحة حال الباطن هي تحلي الظاهر بالأحكام الشرعية، وهذا هو طريق الاستقامة".^{٣٢}

والحاصل؛ إن الظاهر والباطن عنصران مكملان لبعضهما البعض. وبدون توفر أحدهما يكون الآخر ناقصاً دائماً.

٣١ الاستدراج هو: إغداق الله سبحانه وتعالى بالنعم على الضالين والمنحرفين عن الطريق القويم وتزيين أحوالهم أمام أعينهم كابتلاء لهم وزيادة ضلالتهم. وكذلك فإن الاستدراج يعني إجراء الخوارق الشبيهة بكرامات الأولياء على يد الكافرين، والفاسقين، والمتمشيخين على الرغم من انحرافهم وضلالهم. وهذا النوع من الأحوال يدفع النفس إلى الغرور، وبدلاً من تقريب الشخص إلى الحق سبحانه وتعالى فإنه يبعده عنه أكثر.

٣٢ الإمام الرباني: المكتوبات، ٣، ٨٧ - ٨٨، رقم ٨٧.



أهل السنة والجماعة

لقد كانت الأفكار الفاسدة والتيارات الباطلة قد كثرت وتعاظمت بدرجة كبيرة في عهد الإمام الرباني رحمته الله. وكانت عقائد الكثير من المسلمين قد تعرضت لهزات شديدة، وفست عباداتهم ومعاملاتهم.

وكان الإمام الرباني رحمته الله الذي حزن وتأثر كثيراً بأحوال المسلمين هذه يبذل أقصى جهوده وطاقاته في سبيل تعليم الناس وتعريفهم بطريق أهل السنة والجماعة وإعادتهم إليه من جديد. لقد كان يعمل من خلال مكتوباته دون كلل أو ملل، ودون تدمير وتراخ على تشجيع الناس على التمسك بعقائد أهل السنة والجماعة مجدداً، ويشرحها ويبينها لهم بكل تفاصيلها ودقائقها. وكان يحيل التفاصيل المتعلقة بالمسائل والمعلومات الفقهية إلى كتب الفقه وعلم الحالة.

ويرى الإمام الرباني بأن أي مرشد ينبغي أن ينبه المريـد الجديد المتسبب إليه حديثاً إلى عدم إيلاء أدنى أهمية وبصورة مطلقة للرؤى والكشوفات التي تبدو مخالفة ولو بشكل بسيط جداً للقرآن الكريم والأحاديث

النبوية الشريفة. وبالإضافة إلى ذلك ينبغي عليه أن يصحح له عقيدته بما يتوافق مع عقيدة أهل السنة، ويعلمه الأحكام الفقهية الضرورية له ويوصيه بالعمل بها.^{٣٣}

وكان الإمام الرباني يقوم بدوره بإقراء مريديه مختلف الكتب الفقهية العائدة لعلماء الدين، وكان يصر ويذكر على الدوام وكلاءه في المناطق البعيدة من خلال الرسائل "المكتوبات" التي يرسلها إليهم بإقراء تلامذتهم ومريديهم هذه الكتب. ونذكر بعضاً من هذه الكتب:

ففي التفسير كتاب البيضوي، وفي الحديث صحيح البخاري ومشكاة المصابيح، وفي الفقه البزدوي والهداية، وفي العقيدة شرح المواقف وحاشية العضودي، وفي التصوف عوارف المعارف.^{٣٤}

على الرغم من حفظ الإمام الرباني رحمة عليه المسائل الفقهية، ومعرفته العميقة بها، وتمكنه في أصول

٣٣ الإمام الرباني: المبدأ والمعاد، ص، ٣٦، قسم ١٠.

٣٤ بدر الدين السرهندي: حضرات القدس، ٢، ٨٩.

وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى

الفقه إلا أنه مع ذلك كان يسارع عند ظهور أي مسألة فقهية إلى مراجعة الكتب الفقهية الموثوقة احتياطاً من الوقوع في الخطأ، ولم يكن يتخلى عن تلك الكتب أبداً. وكان يعمل بالفتاوى والترجيحات الصادرة عن كبار الفقهاء.^{٣٥}

دقته وحرصه الشديد باتباع السنة النبوية

كان الإمام الرباني رحمته الله شديد الحرص على اتباع سنة الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام في كل شاردة وواردة، وكبيرة وصغيرة، يوصي الناس جميعاً على مراعاة هذا النهج.

ذات يوم كان أحد تلامذته استأذن من الإمام أن يكتب الأدعية، والأوراد، والصلوات النافلة اليومية التي يؤديها. فقال الإمام الرباني رحمته الله:

- إن الأعمال الأولى بالاتباع هي أعمال رسول الله ﷺ. فاطلعوا على كتب الحديث وتعلموا منها!. ولما أصر التلميذ على طلبه بقوله:

٣٥ أبو الحسن الندوي: الإمام الرباني، ص، ١٨٢.



- يا سيدي! إن اعمالكم بالتأكيد مطابقة لأعمال
رسول الله ﷺ!

قال الإمام الرباني رحمه الله:

- اكتبوا إذاً! ولكن انتبهوا جيداً! اكتبوا تلك
الأمر الموافقة للسنة القولية والفعلية، ولا تكتبوا تلك
المخالفة لها! ٣٦

عبادته

كما أن الإمام الرباني رحمه الله كان يولي أهمية كبيرة
للعبادات، فقد كان يوصي تلامذته أيضاً بالإكثار منها
والاهتمام بها، فيقول:

"على الرغم من أن النبي عليه الصلاة والسلام كان
حبيب الله تعالى وقد بلغ أعلى المراتب والدرجات،
إلا أنه كان يتعبد ربه ويطيل التعبد حتى تتورم قدماه
الشريفتان. وإن جميع أهل الحق الذين يتبعونه بأفضل

٣٦ كيشمي: بركات أحمدية، ص، ٤٢٧ - ٤٢٨. لقد ألف محمد صالح
كلاي الذي أخذ هذا الإذن كتاباً باسم "هدية الطالبين أو هداية
الطالبين". انظروا: كتاب دولة بيازيد، قسم البيازيد. ٣٨٢٣، ١١-١٧. أ.

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّكَ بِالْعَمَلِ
حَكَمٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

صورة يفعلون مثله... فالمرء كلما زاد من طاعته وعبادته لله تعالى كلما قطع المسافات وتقرّب إليه أكثر".^{٣٧}

كان الإمام الرباني رحمه الله يرى بضرورة النظر إلى النوافل من العبادات المضافة إلى الفرائض على أنها غنائم ينبغي أن يحوزها المسلم ويحافظ عليها. وقد كان رحمه الله في الحضر والسفر، وفي الصيف والشتاء يستفيق من نومه في الليل بعد مرور نصفه أو ثلثيه، فيقرأ الأدعية المسنونة الخاصة بذلك الوقت، ثم يتوضأ بعناية فائقة مراعيّاً فيه كل آدابه. ولم يكن يطلب من أحد أن يصب له الماء من أجل الوضوء، وإنما يتولى ذلك بنفسه، وكان يحرص حرصاً شديداً على عدم الإسراف في الماء، ويظهر اهتماماً بالغاً بالتوجه نحو القبلة أثناء التوضؤ. ولكنه عند غسل رجليه كان يستدير إلى جهة أخرى، وكان يستعمل السواك عند كل وضوء. كان يغسل أعضاء الوضوء بعناية فائقة، وفي كل مرة يغسل فيها عضواً كان يمسحها بيديه حتى لا يبقى هناك احتمال لتقطر



الماء من العضو المغسول أو من يديه، وكان يفعل ذلك احتياطاً لوجود اختلاف حول طهارة الماء المستعمل في الوضوء أو عدم طهارته. وأثناء الوضوء كان يردد الأدعية المذكورة في الأحاديث النبوية الشريفة.

وبعد الانتهاء من الوضوء كان يقرأ دعاء التهجد، ويبدأ بالصلاة. وكان يؤدي صلاة التهجد بحضور قلب وبخشوع تام، ويقرأ خلالها طوال السور. وفي بداياته كان الإمام رحمه الله يقرأ سورة يس بصورة متكررة في صلوات التهجد، وفي عهده الأخيرة أخذ يميل أكثر إلى أسلوب ختم القرآن الكريم في صلواته. وبعد الانتهاء من صلاة التهجد كان الإمام الرباني يغرق بالمراقبة والتأمل والتفكير ويسيطر عليه خلال ذلك خشوع تام. وكان ينام قبل صلاة الفجر مدة معينة اتباعاً للسنة النبوية، ثم يستيقظ قبل بياض الصباح فيتوضأ من جديد ويصلي صلاة الصبح.

كان رحمه الله يؤدي سنة الفجر في بيته، ويردد في الوقت الفاصل بين صلاة السنة والفرص بصمت عبارة:

"سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم"

وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اللَّهُ تَعَالَى

وبعد أداء صلاة الفجر مع الجماعة كان يقوم بإتمام أوراده في المسجد مع أصحابه حتى وقت الشروق. ثم بعد ذلك كان يصلي أربع ركعات صلاة الإشراف بتسليمين ويقرأ خلالها طوال السور، وينشغل بعدها بالأدعية والتسبيحات الماثورة الخاصة بذلك الوقت.

ثم بعد ذلك كان يذهب إلى بيته فيتفقد أحوال زوجته وأولاده، ويتحدث معهم عن الأعمال التي يجب القيام بها، ثم يدخل إلى غرفته وينشغل بتلاوة القرآن الكريم. وبعدها كان يدعو تلامذته، ويسأل عن أحوالهم. ويقدم لهم توصيات ونصائح حول ضرورة التوجه نحو الأهداف السامية، واتباع السنة النبوية، والمداومة على الذكر ومراقبة الله، وإخفاء أحوالهم الروحية، وقراءة كتب الفقه.

كان الإمام الرباني يمضي أغلب أوقات مجالسه ومصاحباته بالسكوت، وكان شديد الحرص على تجنب الخوض في غيبة الناس، وتتبع عيوب المسلمين. ولم يكن المقربون إليه يخوضون في أحاديث الغيبة بحضوره لما كانوا يشعرون به من الاحترام والهيبة تجاهه. وكان رحمته الله يبدى عناية كبيرة في إخفاء أحواله

المعنوية والروحية. كان الإمام يصلي ثمان ركعات صلاة الضحى في غرفته، ثم يخرج لتناول طعام الفطور مع زوجته وأولاده. وإذا لم يكن أحد من أولاده أو العاملون لديه حاضراً في تلك الأثناء كان ينحي له نصيبه من الطعام جانباً ويحفظه له.

وكان أثناء الطعام ينشغل بشكل كبير بإطعام غيره وبالسؤال عن أحوالهم وأمورهم. وكان لا يقوم عن المائدة حتى وإن لم يكن يشعر بالحاجة إلى الطعام، ويظهر بأنه يتناول شيئاً ما، وكان يبدو أنه يعمل على اتباع السنة النبوية في ذلك.

وبعد طعام الغداء كان ينسحب للقلولة مدة معينة اتباعاً للسنة النبوية أيضاً، وأما بعد صلاة الظهر فكان يستمع إلى تلاوة جزء من القرآن الكريم من أحد الحفاظ، وإن كان هناك موعد لأحد الدروس كان يلقيه على تلامذته.

كان الإمام الرباني يؤدي صلاة العصر في أول وقتها، ولم يكن يترك سنتها أبداً. وبعد الانتهاء من صلاة العصر كان ينشغل هو وتلامذته بالمراقبة والتأمل بحالة سكون تام.

وَسَبِّحْهُ وَكَبِّرْهُ
حَكَمٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وكان يقيم صلاة المغرب في أول وقتها أيضاً، وكان بعد الانتهاء من الفرض وقبل القيام من مجلسه يردد سراً ولعشر مرات:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

وكان بعد أداء سنة المغرب يصلي صلاة الأوابين. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقرأ بشكل عام في الركعة الأولى من صلاة الوتر سورة الأعلى، وفي الركعة الثانية يقرأ سورة الكافرون، وأما في الركعة الثالثة فكان يقرأ سورة الإخلاص. وكان يؤدي صلاة الوتر أحياناً بعد صلاة العشاء، وأحياناً أخرى يؤديها بعد صلاة التهجد.

كان الإمام الرباني يراعي في صلواته اتباع كافة السنن، والمندوبات، والآداب، وكان يبدي اهتماماً بالغاً بأداء ركعتي الوضوء، وتحية المسجد.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يخلو إلى الراحة بعد الانتهاء من صلاة العشاء فوراً، وقبل النوم كان يقرأ الأدعية المأثورة، ويكثر من الذكر، والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام. وكان يفعل ذلك بشكل خاص ليلة الجمعة

والاثنيين. وكان ينصح ويوصي بإلحاح الذين يقومون على خدمته، والذين يلتزمون به ولا يفارقونه، يوصيهم بالإكثار من الذكر والمراقبة والاهتمام بهما.

وأما المستمعون إلى تلاوته للقرآن الكريم فكانوا يصلون إلى أعماق الشعور بأسرار وحكم القرآن، وكان الإمام رحمه الله إذا ما قرأ في الصلاة وخارجها آيات الترهيب، أو تلك التي تثير الدهشة والحيرة في القلوب يتطابق أسلوب وطريقة تلاوته مع مضامينها، وكأن معاني تلك الآيات تظهر في صوته وعلى سيماه المبارك. وكان دائم التلاوة للقرآن الكريم حتى أثناء سفره وهو على راحلته، أو في استراحاته.

إلى جانب كونه رحمه الله يبدي عناية خاصة في شهر رمضان الكريم، ويختتم القرآن العظيم في هذا الشهر ثلاث مرات على الأقل. وكان يعجل في الإفطار، ويؤخر تناول السحور اتباعاً لما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة. وكان يعتكف في العشر الأواخر من رمضان.

وأما الزكاة فكان يتوقف عليها بحساسية ودقة بالغة،

وَسَيُجَنَّبُكَ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

دون انتظار حولان الحول عليها، ثم يؤدي زكاتها بصورة مستعجلة. علاوة على إعطائه الأولوية في دفع أموال الزكاة للعاملين في حقل وأنشطة الإصلاح والإرشاد، والأرامل والمطلقات، والمحتاجين، وذوي القربى. كما كان يزور المرضى وكبار السن، ويقرأ عندهم الأدعية المأثورة، ويستجيب للدعوات، إلا أنه لم يكن يحضر المجالس التي تنطوي على ارتكاب الذنوب والمحرمات. ولم يكن تردّد ألفاظ التسييح والحمد تفارق لسان الإمام الرباني رحمته الله، وكان يشكر الله شكراً كثيراً حتى على النعم الصغيرة. وفي هذا المجال كان يكثر من الاستغفار حتى عندما يكون مشغولاً بالقيام بأعمال الخير. وكان إذا أصابته مصيبة أو بلاء يقول: "إنما هذه المصيبة بسبب أحوالنا وأعمالنا السيئة". إلا أنه مع ذلك كان ينظر إلى تلك البلايا على أنها مطهرة من الذنوب كالصابون الذي ينظف الأوساخ، ويقول بأن مواجهة البلايا بالرضا والتسليم سبب للارتقاء والسمو الروحي.^{٣٨}

ومع أن حياته كانت مليئة بالأعمال الصالحة،
وفياضة بالعبادة فقد كان يتمتع بتواضع منقطع النظير،
وينظر إلى نفسه دائماً على أنه مقصر.

أخلاقه الحميدة

لقد كانت الأخلاق الحميدة والفاضلة مثل لين
الجانب، والتواضع، والرحمة والرفق بمخلوقات الله
تعالى، والرضا بكل ما يأتيه من الله قد بلغت أعلى
درجاتها في عالم قلب الإمام الرباني رحمته الله. وقد تعرض
الإمام وأهل بيته لمظالم كثيرة على يد رجال السلطة
والدولة، إلا أنه لم يشتك أو يتذمر يوماً من هذه المظالم
ولو بكلمة واحدة. وكما أنه كان دائماً في مقام الرضا،
فقد كان يوصي المقربين منه أيضاً بالصبر والرضا.

كان يتصرف بغاية الرفق واللين مع الناس، فكان إذا
ما جاء أحد للقاءه ينهض احتراماً له، ويجلسه في صدارة
المجلس، ويخاطبه بأعذب الكلمات وبما يتناسب مع
حاله. ولمن يكن يقوم لغير المسلمين - سواء كانوا من
أصحاب المناصب العالية في الدولة، أو من الوجهاء

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وأصحاب الشأن في المجتمع - . وكان يبادر أولاً بإلقاء التحية والسلام. وكان الإمام الرباني رحمته الله شديد الحرص والتحفظ في مسألة حقوق العباد، وكان إذا ما جاءه خبر عن وفاة أحد من الناس يترحم عليه، ويتلو قول الله تعالى:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^{٣٩}

كان يشارك في تشييع الجنازات، ويدعو ويقرأ القرآن فيها ثم يهدي الثواب للميت.

وكان يرتدي أجمل ثيابه لدى الخروج إلى صلاة الجمعة، والعيدين، وكان إذا ما اشترى ثوباً جديداً يلبسه أولاً لأحد خدمه أو أفراد عائلته. كان يجتمع حوله في غالب الأحيان ما بين ٥٠ - ٦٠ شخصاً، ويصل العدد أحياناً إلى المائة. وكان يحضر مجالسه على الدوام العلماء، والعارفون، والمرشدون، وحفاظ كتاب الله، وأصحاب المناصب والمقامات العالية، وكان يُقدم الطعام للجميع من مطبخ بيته.^{٤٠}

٣٩ البقرة: ١٥٦.

٤٠ أبو الحسن الندوي: الإمام الرباني، ص، ١٨ - ١٨٨.

كان الإمام رحمه الله شديد التعظيم للشعائر الدينية. فذات يوم كان قد رأى أحد حفاظ القرآن الكريم عند ابتدائه بالتلاوة يجلس على فراش أخفض من الفراش الذي يجلس عليه هو، فنهض على الفور من موضعه وجلس في مكان أخفض من الحافظ.^{٤١}

كان الإمام الرباني رحمه الله بغاية التواضع. وإن الأسلوب الذي اتبعه في تدوين مكتوباته وكتبه يظهر بكل وضوح تواضعه العالي. إذ كان يعرف عن نفسه دائماً بعبارة "الفقير" أو "الدرويش".^{٤٢}

وقال في أحد مكتوباته:

"... إن هذا الفقير يريد أن يضع نفسه في خدمة ونصرة الإسلام، ويسعى جاهداً في هذا الطريق بقدر استطاعته وإمكاناته. وأرجو وفقاً لمقتضى الحديث القائل: "من كثر سواد قوم فهو منهم"^{٤٣} أن يكون هذا

٤١ محمد هاشم الكشمي: بركات (زبدة المقامات)، ص، ١٩٩.

٤٢ الإمام الرباني: المکتوبات، ٢، ١٢٠، رقم ٢٦١.

٤٣ ابن مبارك: كتاب الزهد، ١، ١٢؛ الزيلعي: نصب الراية، ٤، ٣٤٦؛

العجلوني: كشف الخفاء، ٢، ٣٧٤.

وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ إِذَا أَطَاعُوا أَمْرًا مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا اتَّخَذُوا صُلْحًا مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ إِذِ اتَّخَذَ اللَّهُ صُلْحًا بَيْنَ يَدَيْهِ يُعْطِي مَن يَشَاءُ مِمَّا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٥﴾

العبد الضعيف والعاجز داخلاً في تلك الزمرة. إن مثلي كمثل عجوز جاءت بغزلها إلى السوق الذي عرض فيه نبينا يوسف عليه السلام للبيع لتشتريه به".^{٤٤}

عجز العقل وضرورة الأنبياء

يرى الإمام الرباني رحمه الله بأن العقل والإلهام عاجزان عن فهم ذات الله تعالى وصفاته حق الفهم وبما يليق به، وعن الوصول إلى العلمي اليقيني، وعن إدراك الحقائق بشكل تام ودون قصور، وعن الوصول إلى المعلومات التي تكون خارج نطاق الإدراك. فلا يمكن أن تكون النتائج والمعلومات التي يتوصل إليها العقل والإلهام خالية تماماً من مخاطر الشبهة، والاضطراب، والخطأ، والنقصان، والسهو.

وبناء على ذلك فلا يمكن تحقيق الفهم الصحيح لمعنى الحياة والكون، ومعرفة الله تعالى بشكل متوافق مع الحقيقة الأصلية إلا بواسطة الأنبياء الذين يفيض عليهم الوحي الذي يُعد المنبع الأساسي للحقائق

المطلقة. فكما أن قدرة وطاقة العقل وقوة فهمه واستيعابه خارج الحواس مثل البصر والسمع وفوق طاقتها، فكذلك قدرة وإمكانات الأنبياء وصلاحتهم هي فوق طاقة العقل. فلا يمكن لأحد أن يدلنا إلى الطريق الصحيح لتعظيم الله تعالى، وعبادته، وإطاعة الأوامر الإلهية، ومعرفته إلا الأنبياء.

وقد وقع الفلاسفة الذين اعتقدوا بأن العقل كائن ذو قدرة وطاقة لا متناهية في مجال الوصول إلى الحقائق ثم أخذوا يقيسون كل شيء بمقاييسه، وقعوا في أخطاء فادحة ومثيرة للسخرية في مسألة معرفة الله تعالى. وكما أنه لا يوجد شيء يسمى العقل المجرد والنقي، فكذلك لا يمكن القول بأن هناك إلهاماً نقياً، ومتحرراً من رغبات وأهواء النفس، ومن المؤثرات الخارجية التي توجه نحو الخطأ أو الصواب. ويُشبه هذا بطائر العنقاء، إذ أنه موجود في الفكر، ولكن لا وجود له في الحقيقة. وقد وقع الإشراقيون الذين ادعوا بأن الحقائق تشرق في داخل نفس الإنسان، وكذلك الذين اهتموا بتطهير وتنقية النفس فقط ببعض الرياضات والتأملات، وقعوا أيضاً ضحايا في شرك الأوهام، والشبهات، والجهالة.

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

إن القول بكون العقل صاف، ونقي، وخالٍ من القصور غير ممكن. وذلك لأن العقل يتأثر بالقناعات، والأفكار الإيمانية، والمؤثرات الخارجية. ولا يمكن التخلص من نقاط الضعف المتمثلة بالجشع، والطمع، والغضب، والخصومة، والهوى وغيرها؛ ولا من صفات النقص مثل النسيان، والخطأ، والشرود. فكثير من الأحكام التي يتوصل إليها العقل تظهر إلى العلن وهي مختلطة ومصبوغة بهذه الملونات الخارجية. ولهذا السبب فإن العقل ليس بمصدر خالٍ من الخطأ، وإنما على العكس فهو مصدر عاجز ومتصف بعدم الكفاية.

وبالمقابل فإن الملاك الذي ينزل بالوحي على الأنبياء والرسل بعيد عن كل هذه النواقص، وغير قابل للتأثر بأي من هذه المؤثرات السلبية. ولذلك فإن المصدر الخالي من النقص وغير قابل للوقوع في الخطأ والسهو هو النبوة فقط. فبدون النبوة لا يمكن تحقيق التزكية الحقيقية للنفس.^{٤٥}

٤٥ انظر الإمام الرباني: المكتوبات، ١٥٠، رقم ٢٦٦؛ ٣، ٢٣٩ - ٢٤٢، رقم ٢٣؛ أبو الحسن الندوي: الإمام الرباني، ص، ٢٠٣ - ٢٠٤، ٢٢٧.

ويقول المؤرخ وعالم الاجتماع الإسلامي الكبير
ابن خلدون في هذا المجال:

"العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها،
غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة
النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن
ذلك طمع في محال. وشبيه بالرجل الذي رأى الميزان
الذي يوزن به الذهب، فطمع "لما رأى فيه من الدقة" أن
يزن به الجبال! فهذا لا يدل على أن الميزان في أحكامه
غير صادق. وكذلك للعقل حداً "في القدرة على المعرفة،
والكشف، والفهم" يقف عنده، ولا يتعدى طوره".^{٤٦}

إن الفلسفة والتيارات والسبل المشابهة لها تدعي
السعي بجهودها نحو الوصول إلى الحقيقة وفهما دون
الحاجة إلى تبليغ وإرشاد الأنبياء. إلا أن هذه الحقائق لا
يمكن فهمها ومعرفتها دون وساطة عباد الله الاستثنائيين
الذين أكرمهم بميزة النبوة. فهم يُعتبرون أعظم نعمة أنعم
الله بها على البشرية جمعاء. إذ أن العلوم العظيمة التي

٤٦ ابن خلدون: المقدمة، ص، ٤٧٣.



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

قدموها للإنسانية حول ذات الله تعالى وصفاته دون انتظار أدنى ثمن أو مقابل، لا يمكن للناس جميعاً الوصول إلى جزء بسيط منها عن طريق الأفكار الفلسفية، والبحث، والدراسات، والاختبارات، والكشوفات، ووسائل الارتقاء بالنفس وتنقيتها ولو استمروا في ذلك لآلاف السنين.

«... ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» "٤٧.

كلمة التوحيد والذكر الدائم

يقول الإمام الرباني رحمته الله عن مكانة كلمة التوحيد وعلو شأنها:

"أجد هذه الكلمة الطيبة مفتاح خزينة تسع وتسعين رحمة، أعني ما جعلت ذخيرة لأجل الآخرة. وأعلم أنه لا شيء أشفع من هذه الكلمة الطيبة في دفع ظلمات الكفر وكدورات الشرك... ولا يُعلم في البلد تمنٍ يساوي لتمني أن يقعد الإنسان في زاوية منعزلاً عن

الناس متلذذاً ومحتظاً بتكرار هذه الكلمة الطيبة، ولكن ما نفعل، فلا تيسر جميع التمنيات، ولا بد من الغفلة والاختلاط بالخلق...".^{٤٨}

ومن العبارات التي كان الإمام الرباني يوصي بها الناس المداومة على حالة الذكر:

"ينبغي على طالب هذا الطريق بعد تصحيح العقائد بموجب آراء أهل الحق شكر الله تعالى سعيهم، وبعد تعلم الأحكام الفقهية، والعمل بمقتضى العلم أن يصرف جميع أوقاته في ذكر الله جل شأنه، بشرط أن يكون ذلك الذكر مأخوذاً من الشيخ الكامل المكمل، فإنه لا يحصل الكامل من الناقص... وينبغي أن يشتغل بالذكر بوضوء وبغير وضوء، قائماً وقاعداً، ولا يخلو منه في مجيئه وذهابه، وعند أكله ونومه".^{٤٩}

"اعلم وتنبه أن سعادتك، بل وسعادة أبناء آدم جميعاً وفلاحهم وخلاصهم كل ذلك مرتبط بذكر مولاهم جل

٤٨ الإمام الرباني: المکتوبات، ٢، ٥٩١ - ٥٩٤، رقم ٣٧.

٤٩ الإمام الرباني: المکتوبات، ٣، ٤٥٤، رقم ٨٤.



وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّكَ بِالْعَمَلِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

سلطانه، فينبغي استغراق جميع الأوقات بالذكر الإلهي جل شأنه قدر الإمكان، ولا يجوز الغفلة لحظة واحدة...".^{٥٠}

اللقمة الحلال

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"نصيحتي لكم: الاحتياط في اللقمة، فلا ينبغي للإنسان أن يأكل كل ما وجدته، ومن أي محل كان من غير ملاحظة الحل والحرمة الشرعيتين، فإن الإنسان لم يخلق سدىً لكي يفعل كل ما يريد، بل له مولى جل شأنه كلفه بالأمر والنهي، وبين له ما يرضاه وما لا يرضاه بواسطة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات الذين هم رحمة للعالمين، والمحروم من السعادة من يسير خلاف مرضى مولاه، ويتصرف في ملكه وملكوته بلا إذنه ورضاه...".^{٥١}

"ينبغي أداء الصلوات الخمس بالجماعة وتمييز الحلال من الحرام... وينبغي أن لا تكون الملذات الفانية، والنعم الهالكة منظوراً إليها".^{٥٢}

٥٠ الإمام الرباني: المکتوبات، ١، ٥٦٩، رقم ١٩٠.

٥١ الإمام الرباني: المکتوبات، ٣، ٤٤، رقم ٦٩.

٥٢ الإمام الرباني: المکتوبات، ١، ٤٦٧، رقم ١٤٣.

أهمية الصحبة "المجالسة"

كان الإمام الرباني رحمته الله يذكر بصورة مستمرة بأهمية "الصحبة" في الطريقة النقشبندية، وبكونها أساس هام من أسسها، وكان يروي الحادثة الآتية عن الخواجة أحرار رحمته الله:

"قال الخواجة عبيد الله أحرار رحمته الله: كنا مع جماعة من الدراويش، فجرى الكلام بيننا في الساعة المستجابة المودعة في يوم الجمعة بأنها إذا تيسرت فماذا ينبغي أن يُطلب من الله تعالى فيها. فقال كل أحد كلاماً، وقلت:

ينبغي أن يطلب فيها صحبة أرباب الجمعية^{٥٣} فإن جميع السعادات ميسرة في ضمنها...".^{٥٤}

ويبين الإمام الرباني أهمية "الصحبة" في مكتوب آخر من مكتوباته، بقوله:

٥٣ هي حالة تجمع همة السالكين في نقطة التوجه إلى الله، والانشغال به وترك كل ما سواه. وبعبارة أخرى هي حالة الاجتماع، والحضور، والمعية الروحية الحاصلة في القلب مع الله تعالى.

٥٤ الإمام الرباني: المكتوبات، ٣، ٣٩٨، رقم ٧٠.

وَيَسْمَعُونَ كَلِمَةً
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

"لا تعدل بالصحبة شيئاً أياً ما كان، ألا ترى أن أصحاب رسول الله قد فُضِّلوا بالصحبة على من عداهم سوى الأنبياء عليهم السلام، وإن كان أويس القرني، أو عمر بن عبد العزيز المرواني مع بلوغهما نهاية الدرجات، ووصولهما غاية الكمالات..."

ولو علم أويس القرني فضيلة الصحبة بهذه الخاصية لما منعه مانع من الصحبة، ولما أثر شيئاً من الأشياء على هذه الفضيلة..."^{٥٥}

استغلال الفرصة

كان الإمام الرباني رحمته الله ينظر إلى الحياة الدنيا القصيرة على أنها فرصة كبيرة، ويوصي تلامذته بالعمل على استغلالها بأفضل صورة. فيقول في أحد مكتوباته: "أيها الولد الأعز! إن الفرصة مغتنة، فينبغي أن لا يُصرف تمام العمر في أمور لا طائل فيها، بل ينبغي أن يصرف تمامه في مرضي الحق جل وعلا، فينبغي أن تُؤدى الصلوات الخمس بالجمعية والجماعة مع

تعديل الأركان، وينبغي أن لا تترك صلاة التهجد، وأن لا تضيع الاستغفار في الأسحار مجاناً، وأن لا ينخدع بالحظوظ العاجلة، وأن يجعل تذكر الموت وأهوال الآخرة نصب العين.

وبالجملة ينبغي أن يكون معرضاً عن الدنيا ومقبلاً على الآخرة، وأن يشتغل بالدنيا بقدر الضرورة، وأن يُعمر سائر الأوقات بالاشتغال بأمور الآخرة.

وحاصل الكلام؛ هو أنه ينبغي أن يتخلص القلب من رقية الأغيار وكل ما سوى الله، وأن يكون الظاهر مزيناً ومحلى بالأحكام الشرعية.

هذا هو الأمر والباقي خيالات، وبقية الأحوال بالخير والسلام".^{٥٦}

ويقول الإمام في مكتوبات أخرى:

"بمقتضى مبدأ (ما لا يدرك كله لا يترك كله) ينبغي أن يلتزم بكون المعاملة والمعيشة خلال أيام قليلة وفق السنة واتباع صاحب الشريعة عليه وعلى آله

٥٦ الإمام الرباني: المكتوبات، ٢، ٥٥٢، رقم ٣١.

وَسَيُجَنَّبُكَ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

الصلاة والسلام. فإن التخلّص من عذاب الآخرة والفوز
بالتنعمات السرمدية مربوطة بسعادة هذا الاتّباع...".^{٥٧}

"إن وقت العمل إنما هو عهد الشباب. والعاقل من
لا يضيع هذا الوقت ويغتني الفرصة. فإن الأمر مبهم،
فعساه أن لا يبقى إلى زمن الشيخوخة، ولئن بقي فلعله
لا تيسر له الجمعية، ولئن تيسرت فلعله لا يقدر على
العمل في أوان استيلاء الضعف والعجز. والحال إن
أسباب الجمعية كلها ميسرة الآن...

إن أفضل زمن للعمل واستغلال الفرص هو زمن
القوة والاستطاعة. فبأي عذر يمكن أن يؤخر شغل اليوم
إلى الغد، ويختار التسويف؟".^{٥٨}

"أيها الأخ العزيز! إن الزمن زمن العمل، وليس زمن
الكلام والحديث. فيجب ربط القلب ظاهراً وباطناً بالله
ﷻ. وما ينبغي النظر إلى ما سوى الله تعالى من دون إذنه،
فهذا هو العمل الحقيقي، وكل ما عداه لغو وهباء".^{٥٩}

٥٧ الإمام الرباني: المكتوبات، ١، ٢٩٨، رقم ٧٠.

٥٨ الإمام الرباني: المكتوبات، ١، ٣٠٧، رقم ٧٣.

٥٩ الإمام الرباني: مكاشفات غيبية، قسم ٢٠.

"أيها العزيز! قد تمضي أوقات الاشتغال بالعمل، وكلما يمر آن ينقص شيء من العمر ويقرب الأجل المسمى، فلو لم يحصل التنبه اليوم لا يكون نقد الوقت غداً غير الحسرة والندامة.

ينبغي الاهتمام بالقيام بالمعاملة وفق الشريعة الغراء في هذه الأيام المعدودة، حتى تتصور النجاة. إن هذا الوقت وقت العمل، لا وقت الراحة. وإن الراحة التي هي ثمرة العمل أماناً. والاستراحة في وقت العمل تضيق للزراعة ومنع لها من الإثمار".^{٦٠}

ترك النفس

يُعد ترك اللذات الشرط الأول للارتقاء الروحي. ولا يمكن نيل المحبة الإلهية من دون ترك النفس وحفظها. ويعبر الإمام الرباني عن هذه الحقيقة بقوله: "إن القلب لا تتعلق محبته بأكثر من واحد. فما دام التعلق بذلك الواحد قائماً لم تتعلق محبته بما سواه. ولو أنه يرى كثرة مراداته، وتعلق محبته بالأشياء

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

الكثيرة حوله كالمال والولد، والرياسة، والمدح والرفعة
والمكانة عند الناس فإن محبوبه في الحقيقة لا يكون
إلا واحداً وهو نفسه، وما محبته لهؤلاء إلا فرع لمحبه
لنفسه، إذ أنه لا يريد هذه الأشياء إلا لنفسه، لا لأنفسهم
هم. فإذا زالت محبته لنفسه زالت محبتهم بالتبعية أيضاً.
ولهذا قيل:

إن الحجاب بين العبد والرب هو نفس العبد لا
العالم. إذ أن العالم في ذاته غير مراد للعبد حتى يكون
حجاباً، وإنما مراد العبد هو نفسه، فلا جرم يكون الحجاب
هو العبد لا غير، فما لم يتخل العبد عن مراد نفسه كلية
لا يكون الرب مراده، ولا يسع قلبه محبة الله ﷻ.^{٦١}
وكما قال مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

"وليس القرب من الحق هو الذهاب إلى الأعلى
أو النزول إلى الأسفل، إن قرب الحق هو الخلاص من
حبس الوجود (النفس)".^{٦٢}

٦١ الإمام الرباني: المكتوبات، ١، ١٦٣ - ١٦٤، رقم ٢٤.

٦٢ مولانا: المثنوي، ج ٣، البيت ٤٥١٤.

ويقدم الإمام الرباني رحمه الله النصيحة الآتية لأولاده لكي يتمكنوا من تخليص القلب من محبة الكائنات الفانية وتوجيهه نحو المحبة الإلهية، فيقول:

"ينبغي أن لا يكون شيء من غير مرضيات الحق جل وعلا مرضياً ومراداً لكم، فإننا لو ذهبنا، ذهبت هذه الأشياء كلها، فلتذهب في حياتنا، ولا تتفكروا فيها. فقد ترك الأولياء هذه الأمور باختيارهم".^{٦٣}

وفاته رحمه الله

أخذ الإمام الرباني رحمه الله يتعرض لضيق التنفس قبل وفاته بعدة شهور. وفي الأيام الأخيرة قال لأولاده: "يا أولادي الأعزاء! لم يعد لي في هذه الدنيا شيء أنظر إليه، أو يربطني بها. وإنما يهيمن علي التفكير بالعالم الأبدي فقط، وهذا يدل بأنه قد اقترب موعد رحيلي". ثم بعد ذلك قطع كل صلاته وعلاقاته بالعالم الخارجي، وفضل الانعزال والاختلاء بنفسه. ولم يكن يخرج من عزلته إلا لأداء الصلوات الخمس جماعة،

وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

ولصلاة الجمعة. وكان يمضي كل أوقاته بالذكر، والاستغفار، وبالنشغال بظاهره وباطنه. فكانت حالته هذه تطبيقاً لما جاء في قول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾^{٦٤}

كانت الدموع ملازمة لعينه في غالب الأوقات من شدة الشوق إلى لقاء الله تعالى، ولم تكن عبارة "اللهم الرفيق الأعلى" تفارق لسانه. ومرت في هذه الأثناء عدة أيام وقد عادت إليه الصحة والنشاط نوعاً ما، فخير الهدوء والسكون قليلاً على القلوب العليلة والمهمومة والمتكدرة. وأما هو فقد أخذ يقول:

"لم أعد أشعر في هذه الأيام الصحيحة بالمتعة واللذة الروحية التي كنت أشعر بها في مرضي!".

وفي تلك الأيام كان يكثر من الصدقات وأعمال الخير، ولما رأى أحد أصحابه إكثاره من الصدقات وأعمال الخير سأله قائلاً:



- هل كل هذا من أجل دفع البلاء؟. فقال الإمام الرباني:
- لا، ليس لدفع البلاء، وإنما شوقاً للوصال!
- و ذات يوم رآه أولاده وهو يبكي، ولما سألوه عن السبب، قال الإمام:
- إني أبكي فرحاً بقاء الله تعالى!. ولما قال له أبناؤه:
- إنك على غير عادتك تحرمنا في الأيام الأخيرة من اهتمامك والتفاتك إلينا، فما سبب ذلك؟. فقال الإمام:
- السبب هو محبة الله التي هي أكثر من محبتكم!
- وفي آخر أيامه أخذ يتوقف على مكرمات الله تعالى اللامتناهية ونعمه التي لا تُحصى ويتحدث عنها. وقام بتوزيع كل ثيابه على الفقراء والمحتاجين. ولأنه لم يبق على جسمه ثوب قطني سميكة يقيه من البرد فقد عادت حرارته إلى الارتفاع لبرودة الطقس، فانهارت صحة الإمام الرباني من جديد كما حصل مع النبي عليه الصلاة والسلام عندما تعافى من مرضه الذي توفي فيه

وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

قبل انتقاله إلى الرفيق ثم ما لبث أن ثقل عليه. وبذلك فإنه قد صار متبعاً لهذه السنة أيضاً.

لم يتخل الإمام عن أداء الصلاة مع الجماعة حتى في تلك الأيام التي تعرض فيها للضعف وفقدان طاقته. وكان دائم الانشغال بالدعاء والابتهاال والذكر، ولم يغفل عن المراقبة للحظة واحدة. وكذلك لم يغفل أبداً عن أوامر ومبادئ الشريعة والطريقة، وظل محافظاً على صلاة التهجد حتى ليلته الأخيرة.

وكان الإمام الرباني يوصي من حوله باتباع السنة، والحذر من البدع، والمداومة على الذكر والمراقبة، ويقول: "لم يتوان صاحب هذه الشريعة سيدنا رسول الله ﷺ لحظة واحدة عن العمل لخير أمته، والسعي في إصلاحهم وهدايتهم اتباعاً لمبدئه القائل: "الدين النصيحة".^{٦٥} فينبغي اتباع الكتب الدينية المعتمدة والعمل بمقتضاها. واتبعوا السنة النبوية بدقة في أمور تجهيزي وتكفيني، ولا تدعوا سنة من السنن تفتكم!".

وقال لزوجته راجياً:

"يبدو أن ارتحالي إلى الآخرة سيكون قبلك!
فاجعلي نفقات أعمال التجهيز والتكفين من مال
مهرك!". لأن أحد أكثر الأموال حلاًّ مهر المرأة.
وكان الإمام دائم الوضوء لحرصه على أن تدركه
المنية وهو على وضوء.

وفي لحظاته الأخيرة عندما أوى إلى الفراش تمدد
على شقه اليمين، ووضع يده اليمنى تحت خده الأيمن
اتباعاً للسنة النبوية، وانشغل بالذكر. ولما لاحظ أولاده
تسارع وتيرة تنفسه، سألوه:

- كيف أنت؟ فقال الإمام:

- نحن بخير. وثم لم يعد يذكر شيئاً غير لفظ الجلالة
"الله". ثم بعد مدة قصيرة سلم الروح لبارئها.

ودع الإمام الرباني رحمه الله هذه الحياة الفانية في
الثامن والعشرين من شهر صفر لعام ١٠٣٤ هـ الموافق
للعاشر من شهر كانون الأول لعام ١٦٢٤م، وله من
العمر ثلاث وستون سنة.

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

لما جيء بجثمان الإمام الرباني الطاهر من أجل الغسل وجد الناس أن يدها مطويتان على صدره بوضعية الوقوف للصلاة. ففرق من تولى الغسيل يديه عن بعضهما، إلا أنهما عادتا بعد الانتهاء من الغسل إلى وضعيتهما السابقة. وبعد التكفين رأى الناس من جديد بأن يدها قد ربطتا وفقاً للسنة النبوية.

فقال أولاده:

- طالما أن الإمام يريد ذلك فلندعه هكذا!. كان الناس ييكون حول الجثمان، وأما الإمام فقد كانت تعلق وجهه ابتسامة نورانية تعجز الكلمات عن وصفها. وكأن التصوير الشعري الذي قام به أحد الشعراء يصف حالته، حيث يقول:

أنت الذي ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً

والقوم حولك يضحكون سروراً

فاحرص على عمل تكون به إذا بكوا

في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

فتمت إجراءات الغسل والتكفين بما يتوافق تماماً
مع السنة النبوية، ودفن في مسقط رأسه في بلدة سرهند
التابعة لدولة الهند.^{٦٦}

إن الإمام الرباني ليس بالعالم المنحصر بعصره،
وإنما هو ذاك العالم الذي يُعد من أهل الله والذي ذاع
صيته ولمع نجمه في العالم كله في عصره والعصور
اللاحقة له وأرشد الكثير من الناس إلى الطريق الحق.
وما زال مستمراً في إرشاد الناس إلى اليوم من خلال
كتبه وأعماله.

٦٦ انظر؛ كيشمي: بركات أحمدية، ص ٣٠٠-٣١٥؛ أبو الحسن الندوي: الإمام
الرباني، ص ١٧٤ - ١٧٩؛ بدر الدين السرهندي: وصال أحمددي (الناشر:
غلام مصطفى خان)، كارجي: ١٣٨٨ / ١٩٦٨، ص ٦، ١٢، ٢٦.

جملة من نصائحه الحكيمة

"يا ولدي! أساس المسألة هو تجنب الاستزادة المفرطة من المباحات، والاكتفاء بالقدر الضروري منها. وينبغي استعمال ذلك القدر الضروري بنية تحقيق القوة والقدرة، واكتساب يقظة القلب والنشاط من أجل التمكن من الإيفاء بالعبودية لله تعالى بحق".^{٦٧}



"لا ينبغي صرف الأوقات في اللهو واللعب، وإتلاف العمر فيما لا يعني، فضلاً عن صرفها في أمور منهي عنها. وإياكم والرغبة في الغناء والنغمة والانخداع بالتلذذ بها، فإنها سم مطلي بالعسل.

وعليكم باجتنب الغيبة والنميمة بين الناس، فإنه قد ورد في ارتكاب هاتين الذميتين وعيد شديد، وعليكم اجتناب الكذب والبهتان أيضاً، فهاتان الرذيلتان محرمتان في جميع الأديان، وإن ستر عيوب الخلق



وذنوب الخلائق، والعفو والتجاوز عن زلاتهم من عزائم الأمور".^{٦٨}



"إن اتباع الأنبياء يوصل المرء إلى الدرجات العليا؛ واتباع الأصفياء يُبلغ الإنسان إلى المراتب الكبيرة. فأبو بكر رضي الله عنه قد سعى إلى سعادة تصديق النبي عليه الصلاة والسلام كتابع له على الدوام فتربع على قمة مقام الصادقين. وأما اللعين أبو جهل فلأنه قد ضيع قابلية الاتباع في مستنقع الأهواء والرغبات النفسية فقد صار قائد الملعونين".^{٦٩}



"إن محبة العلماء للدنيا ورغبتهم فيها كلف ولطخة على جمال وجههم. وإن كان يحصل منهم فوائد للخلائق، إلا أن علمهم لا يكون نافعا في حقهم، ولا اعتبار لما يحصل منهم من تأييد للشرعية وتقوية

٦٨ الإمام الرباني: المكتوبات، ٣، ٢٩٢، رقم ٣٤.

٦٩ الإمام الرباني: المبدأ والمعاد، قسم ٥١.



وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّكَ بِالْعَمَلِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

للملة، إذ أن التأييد والتقوية قد تحصل من أهل الفجور وأرباب الفتور أحياناً... فإن كان العلماء راغبين عن الدنيا، ومحررين من أسر حب الجاه والرياسة وطمع المال، والرفعة فهم من علماء الآخرة، وورثة الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، وهم أفضل الخلائق".^{٧٠}



"إن الدنيا مزرعة الآخرة. فويل لمن لم يزرع فيها، وعطل أرض الاستعداد، وأضاع بذار الأعمال. ومما ينبغي أن يُعلم أن إضاعة الأرض وتعطيلها يكون إما بأن لا يزرع فيها شيئاً، أو أن يلقي فيها بذراً خبيثاً فاسداً، وهذا القسم من الإضاعة كما لا يخفى على أحد أشدّ مضرة وأكثر فساداً من القسم الأول".^{٧١}



"اعلموا بأن قراءة سورة أو آية نازلة بشأن حادثة خاصة تحقق فائدة لقارئها في ذلك الموضوع. فمثلاً إن

٧٠ الإمام الرباني: المكتوبات، ١، ١٩٧ - ١٩٩، رقم ٣٣.

٧١ الإمام الرباني: المكتوبات، ١، ١٥٩، رقم ٢٣.



قراءة آية متعلقة بتزكية النفس تترك تأثيراً كبيراً على الإنسان في مسألة التطهر والتنقية من الخصال النفسية السيئة والخبیثة. وكذلك الأمر بالنسبة للمسائل الأخرى".^{٧٢}



"إن السبب وراء الفضائل والمناقب في زعم هذا الفقير هو الأسبقية في تأييد هذا الدين والأقدمية في إنفاق الأموال، وبذل الأنفس لنصرة أحكام دين رب العالمين. وحيث كان النبي عليه الصلاة والسلام أسبق من الكل، فيكون أفضل من الكل، وكذلك كل من هو أسبق في هذا الأمر فهو أفضل من المسبوقين".^{٧٣}



"إن الله سبحانه وتعالى يعلم عباده الدعاء الآتي:
﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾"^{٧٤}

٧٢ الإمام الرباني: مكاشفات غيبية، قسم ١١.

٧٣ الإمام الرباني: المكتوبات، ٣، ١٤١، رقم ٩٩.

٧٤ الفرقان: ٧٤.



وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

أي لا يكفي للإنسان أن يكون صاحب تقوى، وإنما ينبغي أن يسعى ويبذل جهده ليكون سباقاً في التقوى".



"إن المقصود من الخلقة الإنسانية إنما هو أداء وظائف العبودية لله تعالى، ومن أعطي العشق والمحبة في الوسط والابتداء فالمقصود منه التعلق عن كل شيء غير جناب قدسه جل شأنه. فليس العشق والمحبة من المقاصد بحد ذاتهما بل هما وسيلة لحصول مقام العبودية.

إن السالك إنما يكون عبداً لله تعالى بحق إذا تخلص من أسر كل ما سواه تعالى عبوديته، فليس فائدة العشق سوى أن يكون وسيلة الانقطاع عن غيره سبحانه وتعالى، ولهذا كانت نهاية مراتب الولاية هي مقام العبودية، وليس في درجات الولاية مقام فوق مقام العبودية". ٧٥



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ

الإمام الرباني

مرحمة الله عليه

- ١ -

يعبر عبد الله بن الديلمي رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَهْمِيَةِ
التعلق بالسنة النبوية بتسليم وطاعة تامة بقوله:
"بلغني أن أول الدين تركاً السنة، يذهب
الدين سنة سنة كما يذهب الحبل قوة قوة".

(الدارمي: المقدمة، ١٦)



حكم من أولياء الله الإمام الرباني رحمته الله - ١ -

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"إن أياً من جهودنا المبذولة في سبيل أداء العبودية الحقة التي تحقق رضا الله تعالى وتوفيقنا إلى ذلك إنما هو لطف من الله. وإذا ما تحتم علينا بيان سبب لذلك فإني أقول: بأن سبب كل الألطاف هو الارتباط برسول الله صلوات الله عليه سيد الأولين والآخرين والسير على أثره ونهجه المبارك...

وإن سبب عدم حصول الإنسان على جزء من شيء ما أو على تمامه إنما هو التقصير في مسألة الاتباع التام لرسول الله صلوات الله عليه.

ذات مرة أصابتنني الغفلة ودخلت بيت الخلاء برجلي اليمنى، فحرمت (بسبب مخالفة فعلي للسنة) ذلك اليوم الكثير من الحالة الروحية".^{٧٦}



وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ذَلِكَ
حَكَمٌ مِّنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

(لا يمكن الوصول إلى الفيوض والروحانية التي
تقرب العبد إلى ربه إلا من خلال التسليم والطاعة التامة
لرسول الله ﷺ. لأن ربنا ﷻ يقول في كتاب العزيز:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^{٧٧}

﴿قُلْ (أيها الرسول) إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾^{٧٨}

أي لا يمكنكم الوصول إلى محبة الله ﷻ إلا
عن طريق طاعة حبيبه والتسليم له، وبشكل خاص عن
طريق المحبة. وإن باب المحبة الإلهية يغلق دون من
ينتابه على هذا الطريق أدنى تردد، أو شبهة، أو إهمال.
وذلك لأن محبة النبي ﷺ محبة لله، وطاعته طاعة لله؛
وعصيانه بمثابة عصيان لله ﷻ، وهذه الحقيقة ثابتة
بالآيات القرآنية. ولهذا فإن المؤمن مضطر ومجبور على
ضبط كل حركاته وسكناته بصغيرها وكبيرها وفق نهج
ونمط حياة حبيب الله الذي يُعد التفسير العملي للقرآن

٧٧ النساء: ٨٠.

٧٨ آل عمران: ٣١.

الكريم، أي أن تكون لديه دقة وحساسية فائقة في اتباع ومراعاة السنة النبوية.

إذ من الحقيقة البينة أن - غالبية - المؤمنين الذين يتمسكون بأهداب السنة النبوية ليس لديهم أي إهمال أو تراخ في القيام بالفرائض. وبالمقابل يلاحظ بأن المهملين للسنن النبوية يفوتون أو يتساهلون كثيراً من الفرائض أيضاً. أي أن حساسية ودقة رعاية السنة تُعد بمثابة درع قوي يغطي الفرائض التي هي بمكانة الأركان الأساسية للحياة الدينية ويحافظ عليها. ولذلك فعندما يتسلط إبليس اللعين وأعدائه على دين إنسان ما وإيمانه فإنهم يعملون أولاً على إبعاده عن السنن النبوية. لأنهم يعلمون بأنهم إن لم ينجحوا في هذا الأمر فلن يكون لهم أمل ومطمع في الفرائض أبداً.

ولهذا فقد عبر عبد الله بن الديلمي رحمته الله عن أهمية التعلق بالسنة النبوية بتسليم وطاعة تامة بقوله:

"بلغني أن أول الدين تركاً السنة، يذهب الدين سنة سنة كما يذهب الحبل قوة قوة." ^{٧٩}

وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وبهذا فإن تراجع السنن وخروجها من حياتنا يجعل
سعادة الأبدية - لا قدر الله - بمغزل الصوف.

وفي الواقع إذا رجعنا إلى تاريخ الأديان نجد أن
انحرافها وفسادها مثل اليهودية والمسيحية قد بدأ بهذه
الطريقة. ففي البداية تم التخلي عن سنن الأنبياء وهجرها،
ثم بعد ذلك جرى تحريف العقائد والعبادات. وفي
النهاية تُركت الصلاة وحُل محلها الطقوس والتراويل،
وتُرك الصيام وحلت مكانه الحمية، وتُرك الحجاب
وجُعل محصوراً بالراهبات فقط، وحتى الراهبات بدأت
في عصرنا هذا بالتخلي عن الستر والحجاب.

فينبغي علينا جميعاً كمؤمنين أن نتمتع بيقظة
وبفراصة وبصيرة نافذة في هذه المسألة، حيث أن أعداء
الدين اليوم يبذلون جهوداً كبيرة في السر والعلن وبكل
ما أوتوا من قوة في سبيل تحريف الإسلام كما حرفوا
المسيحية من قبل. وإنهم ولكي لا تتكشف نواياهم
الأساسية الخفية ويتعروا أمام الناس فإنهم لا يستهدفون
في خططهم الأولى مبادئ وأركان العقيدة الأساسية
للدين والأحكام المفروضة، وإنما يعملون في البدء



على التقليل من شأن السنن التي تُعد بمثابة الدرع الواقى لتلك المبادئ والأحكام في نظر الناس.

والأدهى والأخطر هنا هو أننا نعثر بكثرة ضمن هذه الحركات الإفسادية في عصرنا هذا حيث انتشرت الأفكار المخالفة والمناقضة لطريق أهل السنة والجماعة، واهتزت واختلت عقائد الكثير من المسلمين وسرى الفساد إلى عباداتهم ومعاملاتهم، نعثر على أشخاص ممن يصفون أنفسهم بعلماء الدين، ويظهرون بمظهر أساتذة الإلهيات والشرعية. وهؤلاء يسعون جاهدين لتسميم القلوب، وزعزعة الأفكار حتى في المسائل التي اتفقت عليها الأمة وأجمعت عليها منذ أربعة عشر قرناً.

وإن هؤلاء المفسدون يقدمون على إنكار المعجزات لعدم قدرة عقولهم الناقصة على استيعابهم والوصول إلى كنهها، ويسعون إلى نقد وتعديل الميراث القانوني وفق أهوائهم، وحتى إلى إعمال الاجتهاد والرأي في المسائل التي وردت بشأنها نصوص قطعية، فيستخفون بالحجاب، ويردون الأحاديث التي لا تتفق مع وجهات نظرهم الخاصة بعيداً عن قواعد الرواية والسند، ولا يعيرون للسنن أهمية تذكر.

وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

إنهم يعملون على نبذ السنة النبوية التي هي تفصيل، وتفسير، وشرح، وتطبيق عملي للقرآن الكريم في الحياة من خلال رفع شعار "الاكتفاء بالقرآن" الذي يبدو ظاهرياً وللوهلة الأولى حقاً وصواباً، ثم يحاولون بعد ذلك إيجاد "إسلام قرآني" خاص بهم ومتوافق مع أهوائهم بتفسير القرآن بأفكارهم وآرائهم.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذه الفئة من "محرفي الدين" الذين يرتدون لباس الدين ويقدمون القرآن ويظهرون تمسكهم به، ويخفون نواياهم وأهدافهم الأساسية. وذلك بقوله في الحديث الشريف:

"ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه. ألا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه. ألا وإن ما حرم رسول الله - ﷺ - مثل ما حرم الله تعالى".^{٨٠}

٨٠ أبو داود: السنة ٦، رقم الحديث ٤٦٠٤، ٤/٢٠٠؛ ابن ماجه:

المقدمة ٢، رقم الحديث ١٢، ١/٦؛ الترمذي: العلم ١٠، ٢٦٦٣،

٢٨٠١؛ ٥/٣٧؛ أحمد بن حنبل: ٨/٦.

وفي رواية أخرى يبين النبي عليه الصلاة والسلام ضرورة التمسك بالسنة، فيقول:

"أحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن؟ ألا وإني والله قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر...".^{٨١}

وتلفت الآية القرآنية الآتية الأنظار إلى أنه لا يمكن فهم القرآن الكريم بالشكل الصحيح إلا عن طريق السنة النبوية، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^{٨٢}

ولذلك لا يمكن الولوج إلى الأسرار والحكم الكامنة في القرآن الكريم وفهمها إلا من خلال الاعتراف من ينبوع قلب رسول الله ﷺ. إذ أن حياة النبي عليه الصلاة والسلام كانت طيلة فترة النبوة التي امتدت لثلاث وعشرين سنة بمثابة تفسير حي للقرآن الكريم.

٨١ أبو داود: الخراج، ٣١.

٨٢ الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥.



وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

ولهذا الاعتبار فإن معرفة وفهم رسول الله ﷺ يُعد الخطوة الأهم على طريق العبودية لله تعالى. فمن دون التعرف على النبي عليه الصلاة والسلام، وفهمه، والسير على آثاره ونهجه، والاعتراف من أحاسيسه ومشاعره القلبية لا يكتمل إيماننا، ولا عبوديتنا، ولا يمكن فهم القرآن الكريم بالشكل الصحيح...

فهناك الكثير من الأوامر الإلهية التي لم يذكر القرآن الكريم كيفية تطبيقها في الحياة العملية. ولا يمكننا تعلم تلك الكيفية إلا من تطبيق رسول الله ﷺ لها في حياته.

ومثال ذلك أكل الميتة؛ فقد ذكر القرآن الكريم تحريم أكل لحم الميتة بشكل عام. ولكن استثني من هذا التحريم الميت من السمك بعد اصطيادها، وكان هذا الاستثناء عن طريق السنة النبوية.

وكذلك فقد ورد في القرآن الكريم الأمر بالصلاة، إلا أنه لم يبين كيفية أدائها. أي لم يوضح التفاصيل المتعلقة مثلاً بعدد الركعات، والصور والأدعية المطلوب قراءتها فيها، وتعديل الأركان، ولم نعلم بكل هذه الأمور إلا من السنة.



وعدا عن ذلك، فإن القرآن الكريم يكشف أسرارهِ وحكمه لـ "أهل التقوى". حيث يقول الله تبارك وتعالى في الآية القرآنية:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^{٨٣}

أي الذين يحذرون من الوقوع في المحرمات خشية وخوفاً من الله ﷻ .

ولهذا فإن أفضل من يفهم القرآن الكريم ويدرك معانيه هم الذين يعيشون حياتهم على التقوى، ويطهرون قلوبهم ويرتقون بها. إذ بإمكان كل الناس الجلوس أمام المصحف الشريف وقراءته، ولكن استفادة كل واحد منهم من القرآن تكون بنسبة سوية قلبه.

ونورد في هذا المقام الحالة التي تعرض لها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه والتي فيها الكثير من العبرة: خرج عمر يعس المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي، فوقف، فسمع قراءته يقرأ سورة الطور حتى بلغ قول الله تعالى:



﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾^{٨٤}

فقال: قسمٌ ورب الكعبة حق، ونزل عن حمارة واستند إلى حائط فلبث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فلبث شهراً في فراشه لشدة تأثره بالوعيد الإلهي الوارد في تلك الآية يعودُه الناس لا يدرون ما مرضه.^{٨٥}

إذاً إن القرآن الكريم بحر عظيم لا شطآن ولا قرار له، ويمكن للناس الغوص في أعماقه كل بحسب سوية قلبه. فكما أن الذي لا يعرف السباحة لا يمكن أن يخوض إلا في مياه ضحلة، بينما الماهر بالسباحة يمكنه الغوص إلى بحر متلاطم الأمواج والوصول إلى أعماقه، ثم مشاهدة عوالم مختلفة مليئة بالمناظر العجيبة والغريبة التي تأخذ بالألباب والتي لا يمكن ملاحظتها من الشواطئ، فكذلك الأمر بالنسبة للذين قد قطعوا مراحل قلبية متقدمة على طريق التقوى بإمكانهم مشاهدة الكثير من التجليات الملئية بالحكم في القرآن الكريم، ونيل الفيوضات منها بالمعنى الحقيقي.

٨٤ الطور: ٧ - ٨.

٨٥ ابن رجب الحنبلي: التخويف من النار، دمشق ١٩٧٩، ص ٣٠.

فبعض من هؤلاء البائسين يتجرؤون دون رؤية هذه الحقائق وأمثالها على الإقدام على تقليد الدين - باسم اتباع القرآن - ليتوافق مع أفكارهم وآرائهم الضيقة والضحلة. وينبري هؤلاء الذين لا يرتقون حتى إلى مستوى التلاميذ المبتدئين في العلم والعرفان لتوجيه الانتقادات بدون أدنى احترام لكبار الأئمة المجتهدين.

إنهم يتبنون الرأي القائل: "لقد كان أولئك الرجال علماء قبل ألف سنة ماضية، أما اليوم فقد تغير الزمن كثيراً" ثم يتلاعبون بالأحكام الدينية الثابتة التي لا تتغير بتغير الأزمان. يُعد هذا العمل أكثر خطورة على الدين وتخريباً وهدماً من أعمال غير المسلمين من المستشرقين والتبشيريين. فهؤلاء من الرعاع المغفلين الذين يعتقدون باستخدام العلم الديني في نقد الدين ونقضه بدلاً من وضعه في خدمته.

وعلى ذلك ينبغي على شبابنا وبالأخص ممن يتوجهون إلى تحصيل العلوم الدينية أن يكونوا متبهيين ومتيقظين في هذا المجال إلى مسألة المصدر الذي يتلقون منه علومهم، وإلى الذين سيتعلمون منهم أمور

وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

دينهم. لأن النبي عليه الصلاة والسلام قد حذر ونصح الصحابي عبد الله بن عمر رضي الله عنه والذي أحبه كثيراً بقوله له: "يا ابن عمر دينك دينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا".^{٨٦}

وفي الواقع كان الصحابة الكرام والمؤمنون الصالحون الذين ساروا على نهجهم والذين كانوا حريصين للغاية في هذه المسألة، كانوا يقومون برحلات علمية تستمر حتى شهر كامل متحملين خلالها الظروف الشاقة السائدة في ذلك الوقت في سبيل الوصول إلى راوٍ واحد من رواة الحديث للتثبت من صدقيته ثم أخذ الحديث منه. وقد بلغ أولئك مقامات عالية من الفضيلة بالتربية النبوية لدرجة أن أحدهم قد رد أحد الرواة ولم يأخذ منه الحديث بعد أن قطع مسافة طويلة للوصول إليه لمجرد أن رآه يمد حقيبة الطعام لدابة قد أفلتت منه وهي فارغة لاستمالتها والإمساك بها، واعتبر هذا

٨٦ الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، المدينة المنورة، المكتبة العلمية، ص، ١٢١.

التصرف إخلالاً بأخلاق ذلك الإنسان. أي أنه لم ير الشخص الذي لديه ميل أو ضعف في الإقدام على الخداع والمواربة حتى ولو بحق حيوان، لم يره أهلاً لرواية ونقل الحديث لأنه لم يلتزم في طباعه وأخلاقه بمقتضيات الأحاديث النبوية الشريفة.

يقول أبو العالية رحمه الله الذي يُعد من كبار الأئمة التابعين: "كنا نأتي الرجل لناخذ عنه (الحديث) فننظر إذا صلى فإن أحسنها، جلسنا إليه وقلنا: هو غيرها أحسن. وإن أساءها، قمنا عنه وقلنا: هو غيرها أسوأ".^{٨٧}

واليوم أيضاً يشترط أن يقيم أرباب العلم لأخذه معلوماتهم الدينية بعين الاعتبار على ضوء هذه المعايير. لأن الحق سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾^{٨٨}

أي إن أول شرط ينبغي أن يتوفر في العالم الحقيقي هو التقوى / الخشية من الله. فالله عز وجل لا يعتبر من عباده

٨٧ الدارمي: المقدمة، ٣٨ / ٤٢٩.

٨٨ فاطر: ٢٨.

وَسُبْحَانَكَ حُكْمٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

علماء إلا هذا الصنف، وليس الغافلون الذين يظنون دون خشية من الله تعالى ودون حياء من رسول الله ﷺ بأن عقولهم الناقصة إنما هي المعيار الوحيد للحقيقة، ثم يقدمون على غربلة الدين فيأخذون منه ما يوافق عقولهم وهوهم، ويرمون بما لا يوافق ذلك!..

إن الإيمان أساساً هو إقرار أولي يستوجب التصديق القلبي بكثير من الأمور التي سيبقى العقل عاجزاً عن فهمها واستيعابها كلها. فكما أن للعين مسافة إبصار معينة تعجز عن الرؤية بعدها، فإن للعقل كذلك قدرة محدودة على الإدراك؛ ولذلك فإنه غير قادر على فهم وإدراك كل شيء. وهنا يحسن التساؤل: أليست هناك حقيقة فيما وراء حدود قدرة العقل الإدراكية؟ لا شك أن الحقائق الدينية سوف تشكل للإنسان صاحب العقل المحدود والعلم الجزئي حكماً وأسراً لا حصر لها والتي يعجز العقل عن إدراكها نظراً لكون واضعها هو الحق سبحانه وتعالى صاحب العلم الكلي.

وإن الحديث النبوي الآتي يبين هذه الحقيقة بشكل

واضح، حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام:



"خلال الرحلة التي رأى فيها سيدنا موسى عليه السلام مع خضر عليه السلام حوادث عجيبة جاء عصفور فوق على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر عليه السلام: يا موسى: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا نقرة هذا العصفور في البحر".^{٨٩}

كما أن علم نملة صغيرة يُعد قريباً من الصفر بالمقارنة مع علم وعقل الإنسان، فإن حالتنا كذلك نحن البشر تعد عدماً أمام الحق ﷻ. وإن ما يعلمه الإنسان من علوم وأمور تُعد بمثابة العدم بجانب ما لا يعلمه. وهذا من أسباب وصف الله تعالى للإنسان في القرآن الكريم بصفة "الجهول" التي تُعد من صفاته الأساسية الملازمة له. وبالمقابل فإن الله تعالى قد بين عظمة العلم الإلهي ولا محدوديته بقوله:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^{٩٠}

٨٩ البخاري: التفسير، ١٨ / ٤.

٩٠ لقمان: ٢٧.

وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

هناك الكثير والكثير من الحكم والأسرار الإلهية التي يعجز العقل البشري المحدود عن إدراكها، لأن علم سائر الكائنات المخلوقة لا يساوي بجانب علم الله تعالى قطرة من البحر. وقد كُشف جزء يسير من هذه الأسرار لخواص الخواص من العباد، وبنسبة أكبر بقليل للأنبياء، وبدرجة أكبر لرسولنا الكريم ﷺ. ولهذا السبب فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

"لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً"^{٩١}
ولهذا فإن العقل المحدود الذي أنعم به علينا لا يكتسب قيمة إلا ضمن محتوى القرآن والسنة. وقد قال مولانا جلال الدين الرومي في معرض بيانه لأهمية ترك كافة شبه واستفهامات العقل جانباً، ثم التسليم القلبي لله ولرسوله:

"على الرغم من نجاح وفاعلية العقل في الأعمال الدنيوية، فإنه بمقتضى ماهيته يبقى قاصراً في الوصول إلى الحقيقة، والأسرار الإلهية، أي إلى معرفة الله



تعالى. فهناك حاجة إلى واسطة من أجل هذه الرحلة العلوية، وهذه الواسطة هي القلب، والعشق، والوجد، والاستغراق. فليكن العقل فداء للمصطفى عليه الصلاة والسلام!"

لأن العقل لا يمكن أن يخدم السعادة الدنيوية والأخروية للشخص إلا بهذا التسليم. وإلا فإنه يدخل الإنسان في متاهات مسدودة لا خروج له منها.

وهنا فإن الحق سبحانه وتعالى يريد في مجال الإقرار بالحقائق الإلهية التي يعجز العقل عن إدراكها بالمعنى التام - مثل المعجزات، والإيمان بالغيب والقدر - يريد أن يحيلنا إلى الدائرة القلبية التي تُعد مركز إدراك أعلى من العقل. وبذلك فإنه يريدنا أن نعلو في آفاق التسليم التام.

وإن الإيمان الحقيقي يتحقق نتيجة التصديق بالقلب إضافة إلى الإقرار باللسان، وليس نتيجة للتصديق بالعقل. فالإقرار بما يتقبله العقل ليس "إيمان" وإنما "اقتناع". وهو غير ذي قيمة عند الله تعالى لأنه يفتقد جانب التسليم للحق ﷻ.



وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

والحاصل؛ يجب تحصيل ديننا الإسلامي السامي من العارفين والعلماء من أهل التقوى، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة والذين يعيشون حياتهم وفق هدي القرآن والسنة.

ويُعد التمسك بالقرآن والسنة والسير كما جاء بهما، أي الالتزام بالاستقامة من أكبر كرامات هذا الزمن.

إن الحالة التي سنوردها لأبي يزيد البسطامي الذي يُعد من كبار أهل الحق تُعد مثلاً نموذجياً في مجال الكشف عن الأشخاص الجديرين بالاعتبار في الساحة الدينية:

ذات يوم خرج أبو يزيد البسطامي مع أحد مريديه لكي ينظر إلى رجل قد شهر نفسه بالولاية، وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهد، فمضيا إليه حتى وصلا إلى داره، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال:



- هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله
ﷺ؛ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه (من أسرار الحق
سبحانه وتعالى)؟. ٩٢

يقول الإمام الرباني رحمه الله:

"لا ينبغي المساهلة في إتيان المستحب، فإنه
محبوب الحق سبحانه وتعالى ومرضيه. فإن علم
في كل الدنيا فعل واحد مرضي ومحبوب عند الحق
جل سلطانه وتيسر العمل بمقتضاه فينبغي أن يغتنمه،
وحكمه كحكم جواهر نفيسة اشتراها شخص بقطعات
خزف...". ٩٣

و ذات يوم قال الإمام الرباني لأحد تلامذته:

- اجلب بعضاً من القرنفل من البستان!
فذهب التلميذ إلى البستان وأحضر ست قرنفلات.
فلما رآها الإمام في يده قال وقد بدت عليه علامات
الأسف والحزن:

٩٢ القشيري: الرسالة، ص ٥٧، ٤١٦ - ٤١٧.

٩٣ الإمام الرباني: المكتوبات، ٢، ١٧٢، رقم ٢٦٦.

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

- ما زال تلاميذنا لا يراعون حديث النبي عليه الصلاة والسلام القائل:

"إن الله وتر يحب الوتر".^{٩٤} والحال أن مراعاة الوتر من المستحبات.

ماذا يظن الناس عن المستحب؟

إن المستحب هو الشيء الذي يحبه الله. فلو بُذلت الدنيا والآخرة كلها مقابل عمل أحبه الله تعالى يُعد وكأنه لم يبذل شيء بعد. وإننا نراعي المستحب لدرجة أننا حتى عندما نغسل وجوهنا نحرص كل الحرص أن يصيب الماء الخد الأيمن قبل الأيسر. وذلك لأن التيمن في الأعمال من المستحبات".^{٩٥}

فكما يتبين مما تقدم أن أهم كرامة للعلماء والعارفين من أهل الحق الذي يعرفون الرسول عليه الصلاة والسلام حق المعرفة هي حرصهم الشديد وبدقة وحساسية عالية على اتباع السنة النبوية الشريفة في كل

٩٤ البخاري: الدعوات، ٦٨.

٩٥ محمد هاشم الكشمي: بركات (زبدة المقامات)، ص ١٩٨؛ أبو

الحسن الندوي: الإمام الرباني، ص ١٨٠ - ١٨١.

حركاتهم وسكناتهم، وأحوالهم صغيرة، وفي كل صغيرة وكبيرة.

وينبغي أن لا ننسى أيضاً بأن الله تعالى قد أخفى عنا الأعمال التي تتجلى فيها رضاه، وكذلك غضبه، فلا نعلم أي عمل يتجلى فيه غضبه، أو رضاه، وذلك لكي نحرص جاهدين على القيام بكل الأعمال الصالحة، ونتجنب كل المعاصي والذنوب. فرضا الله تعالى، وكذلك غضبه قد يتجلى أحياناً في عمل كبير، وأحياناً في عمل متوسط، وأحياناً قد يتجلى في عمل صغير جداً.

فكما جاء في أحد الأحاديث النبوية أن الله تعالى قد غفر لامرأة فاجرة ذنوبها وجعلها من أهل الجنة بسبب رحمتها بكلب، إذ سقته الماء وأنقذته من الهلاك نتيجة العطش. وبالمقابل فقد ورد في حديث آخر أن الله تعالى قد جعل امرأة من أهل النار بسبب ظلمها لهرة وتسببها بموتها، إذ هي حبستها، ثم لا أطعمتها، ولا تركتها تأكل من حشاش الأرض حتى ماتت.^{٩٦}

٩٦ انظر مسلم: السلام، ١٥١ - ١٥٥.



وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

يقول الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه:

"إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي عليه الصلاة والسلام من الموبقات".^{٩٧}

إذ أنهم بسبب المحبة والخشية الكبيرة التي في قلوبهم تجاه الله تعالى كانوا يعتبرون حتى الصغائر من الذنوب ضياعاً وعصياناً كبيراً، وحتى سبباً للهلاك المعنوي والروحي. وذلك لأنهم لم يكونوا ينظرون إلى حجم الخطيئة وصغرها، وإنما كانوا يأخذون بعين الاعتبار عظمة الله تعالى الذي يعصى أمر من أوامره بهذه الخطيئة.

إذاً لا يكفي لكي يكون الإنسان مؤمناً كاملاً الإيفاء بالفرائض، واجتناب المحرمات فقط. وإنما يلزم أن تتوفر حساسية قلبية مليئة وפיاضة بالوهج الإيمان.



وقد قال الشيخ موسى طويّاش أفندي رحمه الله في هذا الشأن:

"الكثير من الناس يظنون بأنهم قد أدوا ما عليهم من الواجبات والوظائف الدينية بإقامة الصلاة، وصوم رمضان، ثم يجلسون مرتاحي البال. إلا أن هذا الأمر غير كافٍ. إذ ينبغي إلى جانب مراعاة وتعظيم أوامر الله تعالى التحلي بالشفقة تجاه مخلوقاته. وهذا لا يتحقق إلا بالتضحية وبالخدمة الصادقة المخلصة. فالأمر الذي يحرص وينتبه إليه كل مسلم صاحب عقل سليم بعد أداء الفرائض واجتناب المحرمات هو خدمة الإسلام، والمجتمع وسائر المخلوقات، والعمل على التحول إلى عنصر فاعل ونافع في الحياة... وذلك لأن هذه الأمور التي ذكرناها مكملة للفرائض، وأجزاء من سنة رسولنا الأكرم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم..."^{٩٨}

٩٨ انظر، صادق دانا: جلسات "صحبات" آلتن أولوك، ٣، ١١٧،

وَسَيُجَنَّبُكَ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وما أعظم هذا التضرع والابتغال الجميل للإمام
الرباني رحمه الله:

"اللهم نجنا من مقال خالٍ من الحال، وعلم بلا
عمل بحرمة سيد البشر المبعوث إلى سائر الأعراق
أسودهم وأحمرهم وأبيضهم عليه وعلى آله أفضل
الصلوات، وأتم التسليم".^{٩٩}

آمين!



حكم من أولياء الله

الإمام الرباني

مرحمة الله عليه

- ٢ -

إذا ما تمكنا من مد فضيلة إحياء الأسحار إلى
كافة أيام السنة بما في ذلك أسحار شهر رمضان
المبارك عملاً بالمبدأ القائل: "اعلم أن كل ما
تراه هو خضر عليه السلام، وكل ليلة هي ليلة القدر"،
فإن عمرنا كله سوف يمتلئ - بإذن الله تعالى -
- بالفيوضات والروحانية، ويتحول إلى شهر
رمضان الذي تحيا ليااليه بالتقوى؛ وتصبح
لحظة أنفاسنا الأخيرة مثل ليلة الزفاف.



حَكَمٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الإمام الرباني رَحِمَهُ اللَّهُ - ٢ -

يقول الإمام الرباني رَحِمَهُ اللَّهُ:

"الفضيلة منوطة باتباع سنة النبي عليه الصلاة والسلام الشريفة، والمزية مرتبطة بإحياء وإتيان الشريعة التي جاء بها. فمثلاً النوم بعد الظهر "القيلولة" اتباعاً للسنّة النبوية أفضل من إحياء ألوف الليالي على غير وجه الاتباع لها... وإعطاء حبة زكاة بأمر الشارع أفضل من إنفاق جبل من الذهب من تلقاء ذاته". ١٠٠

إن وظيفة المؤمن هي تنفيذ أوامر الله تعالى لمجرد أن الله قد أمره بذلك، وبالشكل والأسلوب الذي طبقها به رسول الله ﷺ. وإن التحرك في هذا المجال - ولو بحسن نية - وفقاً لوجهة النظر الشخصية يخرج العبد خارج نطاق السنّة النبوية، ويقوده للوقوع في الأخطاء. ولذلك ينبغي التعلم من السنّة بشأن الأعمال الصالحة المطلوب القيام بها، وتوقيتها، وكيفيةها، وموازينها، وشكلها.

١٠٠ انظر: الإمام الرباني، المكتوبات، ١، ٤١٨، رقم ١١٤.



حيث أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:
"عمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة، ومن
استن بي فهو مني ومن رغب عن سنتي فليس مني".^{١٠١}
وإن الحادثة الآتية توضح هذه الحقيقة بشكل جلي:
ف ذات يوم رأى سعيد بن المسيب رحمته الله الذي يُعد
من كبار علماء التابعين، رأى رجلاً يصلي ركعتين بعد
صلاة العصر. (فلم يستحسن فعل ذلك الرجل لمصادفة
صلاته وقت الكراهة) فقال له ذاك الرجل:

- يا أبا محمد! أيعذبنني الله على الصلاة؟ محاولاً
الدفاع عن الخطأ الذي ارتكبه.

فقال سعيد بن المسيب رحمته الله:

- لا! ولكن يعذبك على خلاف السنة!^{١٠٢}

ويقول الفضيل بن عياض في هذا الشأن:
"إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل،
وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون

١٠١ عبد الرزاق: المصنف، ١١، ٢٩١.

١٠٢ الدارمي: المقدمة، ٣٩ / ٤٤٢.



خالصاً صواباً؛ والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة".

وعلى ذلك فإذا أردنا أن تكون أعمالنا محققة لرضا الله تعالى فلا بد أن نسعى لإخلاص النية في القلب، وأداء العمل بالشكل الوارد في السنة.

فمثلاً؛ أوصانا النبي عليه الصلاة والسلام بورد معين ومحدد بعد صلوات الفريضة وهو قول "سبحان الله" ثلاث وثلاثين مرة، و"الحمد لله" ثلاث وثلاثين مرة، و"الله أكبر" ثلاث وثلاثين مرة. فلا ينبغي أن نزيد على هذا العدد المحدد كأن نجعله أربعاً وثلاثين مرة بدعوى زيادة الثواب. فمثل هذا العمل ليس من مظاهر "التقوى"، وإنما على العكس حيث يُعد جرأة كبيرة على وصية رسول الله عليه الصلاة والسلام بتقديم رأينا الشخصي عليها. بينما يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿... لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ ١٠٣



وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّكَ بِالْعَمَلِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

فالنظر إلى آرائنا ومعاييرنا الشخصية على أنها أصوب من تعاليم صريحة واردة في الكتاب والسنة بشأن أمر معين يُعد من أشنع أنواع الغفلة والضلالة.

وقد جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله فقال له: "يا أبا عبد الله! من أين أحرم؟" ^{١٠٤}. قال: من ذي الحليفة من حيث أحرم النبي ﷺ. أي بما يتفق مع السنة. إلا أن الرجل قال: إني أريد أن أحرم من المسجد "النبي". فقال رحمه الله: لا تفعل. فقال الرجل: إني أريد أن أحرم من المسجد النبي من عند القبر. فقال مالك رحمه الله: لا تفعل فإنني أخشى عليك الفتنة. قال الرجل متعجباً: وأي فتنة في هذا؟ إنما هي أميال أزيدها. فأجابه الإمام بقوله: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله؟! إني سمعت الله تعالى يقول:

١٠٤ يمكن ارتداء لباس الإحرام قبل محل الميقات حيث تبدأ محظورات الإحرام. إلا أن هذا لا يُعد دخولاً في الإحرام. وإنما الدخول في الإحرام يكون بارتداء لباس الإحرام قبل مكان الميقات أو في مكان الميقات و "عقد النية الإحرام". وتبدأ محظورات الإحرام بعد عقد هذه النية. وإن المقصود ب "دخول الإحرام" في هذه الحادثة هو الإحرام الذي تبدأ معه محظورات الإحرام.

﴿... فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ
فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^{١٠٥}

فكما يتبين مما تقدم؛ ينبغي عدم المبالغة وتجاوز الحدود حتى في الأعمال الصالحة. فلا ينبغي الظن بأن الإفراط في العبادة يُعد ضرباً من "التدين والتقوى".

حيث أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد منع الصحابي الذي تحرك بمثل هذا الاندفاع المفرط وأراد صوم أيام السنة كلها، منعه من هذا السلوك، ولما أصر الصحابي على رغبته وتوجهه أوصاه النبي عليه الصلاة والسلام بصوم سيدنا داود عليه السلام كحد أقصى، وهو صوم يوم وإفطار يوم. وفيما بعد لما تقدم ذاك الصحابي في العمر وشق عليه صوم داود عليه السلام صار يعبر عن ندمه على عدم اتباعه للرخصة التي قدمها له رسول الله ﷺ وقت شبابه.^{١٠٦}

١٠٥ النور: ٦٣. الشاطبي: الاعتصام، ١، ٩٧.

١٠٦ انظر: البخاري، الصوم ٥٥، ٥٦، ٥٧، التهجد ٧، الأنبياء ٣٧،

النكاح ٨٩؛ مسلم، الصيام ١٨١-١٩٣.



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

كما أن إفراط المفرط المؤمن في التوجه إلى الأعمال الصالحة بناء على آرائه وأفكاره الشخصية يُعد خطأ، فكَذلك إقلاله وإنقاصه منها بالطريقة ذاتها يُعد أيضاً خطأً. فعندما نأتي إلى توصية النبي ﷺ بشأن عدد التسيّحات بعد صلوات الفرض والتي جعلها ثلاثاً وثلاثين مرة، ونقول "لنكتفي باثنتين وثلاثين مرة"، ينبغي أن نتذكر ما جرى لنبي الله يونس عليه السلام في هذا الخصوص: فسيدنا يونس عليه السلام أُمر بالبقاء بين قومه أربعين يوماً لتبليغهم الدعوة الإلهية، إلا أنه في نهاية اليوم السابع والثلاثين غضب من قومه الذين لم يكونوا استجابوا لدعوته وآمنوا بعد، وترك التبليغ. بينما كان قد بقي على انتهاء المهلة التي أعطاه الله تعالى إياها ثلاثة أيام، إلا أن يونس عليه السلام أصابه اليأس وفقدان الأمل، وهجر المكان. وبعد أن تعرض لأحداث مروعة في السفينة التي ركبها أدرك الخطأ الذي ارتكبه، إلا أنه قُذف في الماء. وبينما كان يؤنب نفسه وقد خيمت الندامة على خطيئته ابتلعه حوت كبير. فتاب يونس عليه السلام إلى ربه واستغفره، وانشغل بالذكر والتسبيح وهو في بطن الحوت.



ويبين الله سبحانه وتعالى حالته هذه في القرآن الكريم، فيقول:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^{١٠٧}

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^{١٠٨}

إذا؛ يجب إطاعة أوامر الله تعالى بحزم وصبر تام. حيث أن الحق ﷻ يوجه تحذيراً آخر ضارباً مثلاً من جديد بيونس عليه السلام:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾^{١٠٩}

١٠٧ الأنبياء: ٨٧.

١٠٨ الصافات: ١٤٣ - ١٤٤.

١٠٩ القلم: ٤٨ - ٤٩.

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

فكما يتبين مما سبق؛ إن العبودية مرتبطة بالتمكن من تنفيذ صحيح للأوامر الإلهية كما وردت - دون زيادة أو نقصان - . لأن المقصود من الأعمال الصالحة ليس تلك الأعمال بذاتها، وإنما المقصود هو التسليم، والمحبة والارتباط بالله ورسوله والذي سيظهر بواسطة تلك الأعمال. ولذلك فإن الله ﷻ يأمرنا بطاعة رسوله الكريم بتسليم تام.

حيث يقول الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ...﴾^{١١٠}

ويعبر الإمام علي كرم الله وجهه عن علو أفق ارتباطه القلبي بالنبي ﷺ بعبارات جميلة، فيقول:

"لا تتبعوا شيئاً أفضل من سنة نبيكم ﷺ".^{١١١}

"قد رأينا رسول الله ﷺ قام فقمنا وقعد فقعدنا".^{١١٢}

١١٠ الأنفال: ٢٤.

١١١ أحمد: مسند، ١، ١٢١.

١١٢ أحمد: مسند، ١، ٨٣.

فهؤلاء الصحابة الكرام كانوا عشاق النبي ﷺ الذين أطاعوا أوامره بكل تسليم سواء علموا الحكم الكامنة في تلك الأوامر أو لم يعلموا. وأحد هؤلاء العشاق كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فذات مرة رأى عبد الله ﷺ النبي ﷺ يشرب من عين؛ فأخذ بين الحين والآخر يذهب إلى تلك العين ويشرب منها، ومرة رأى النبي عليه الصلاة والسلام يستظل تحت شجرة، فصار بين الحين والآخر يستظل بظل تلك الشجرة، وذات مرة رأى النبي ﷺ جالساً في مكان وقد أسند ظهره المبارك إلى صخرة، فأخذ يمر أحياناً بذلك المكان فيجلس هناك مدة من الزمن وهو مسند ظهره إلى تلك الصخرة؛ وقال مبيناً الحكمة من تصرفاته هذه:

"إنما نفعل ما رأينا رسول الله ﷺ يفعل".^{١١٣}

ونحن بدورنا ينبغي أن نتخذ الصحابة الكرام نماذجاً ومثلاً لنا ونحاذر بشدة من الوقوع في أحد أكثر الأخطاء الشائعة والتي يقع فيها كثير من الناس في يومنا هذا ألا وهو مرض "الاستهتار بالسنن".

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

لأن الحق ﷺ يقول عن النبي عليه الصلاة والسلام:

(إِنَّكَ) «عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^{١١٤}

ولذلك فإن الصراط الأكثر استقامة بالنسبة لنا أيضاً هو بذل كل جهد ممكن للتشبه بالنبي ﷺ والسير على نهجه المنير والتمسك به مثل الظل الذي يفارق صاحبه. ونورد في هذا المضمار حالة من أروع أحوال عثمان بن عفان رضي الله الذي كان في غاية التسليم لرسول الله ﷺ والصدق معه والإخلاص له:

لقد بعث النبي ﷺ عثمان رضي الله عنه رسولاً له إلى مشركي مكة قبل عقد صلح الحديبية ليخبرهم بأن نية المسلمين من القدوم إلى مكة إنما زيارة بيت الله الحرام وأداء العمرة، إلا أنهم مع ذلك لم يأذنوا للنبي ﷺ والمسلمين معه بالدخول إلى مكة. وفوق ذلك كله احتبسوه وقالوا له:

- إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به!

كان المسلمون جميعاً يتحرقون شوقاً للطواف وقد وضعوا الكعبة المشرفة نصب أعينهم. حتى أن بعضهم



كان يتخيل بأن عثمان رضي الله عنه يطوف بالبيت وأخذوا يغبطون على ذلك. إلا أن ذاك الصحابي المبارك الذي كان افتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه قدم درساً رائعاً ومنقطع النظر في الصدق والإخلاص، فقال:

- ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم!
والذي نفسي بيده لو مكثت بها سنة ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.^{١١٥}
أي على الرغم من اكتواء قلب عثمان رضي الله عنه بنار الشوق والحنين إلى الكعبة إلا أنه مع ذلك منع نفسه من الطواف بها لشدة تعلقه القلبي بالنبي صلى الله عليه وسلم وإخلاصه له. فهو قد استحى من التقدم على النبي صلى الله عليه وسلم حتى في أداء إحدى العبادات. وذلك لأن إخلاص ذاك الصحابي الجليل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتسليمه، ومحبته له كانت تستوجب منه هذا الموقف المشرف. فكان ذلك الصحابي المبارك يشرح معنى الحديث القائل: "المرء مع من أحب"^{١١٦}، ويجسده على أرض الواقع بطريقة فريدة.

١١٥ أحمد: مسند، ٤، ٣٢٤.

١١٦ البخاري: الأدب، ٩٦.

وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

فها هي المحبة الحقيقية؛ إنها الخط الممدود بين قلبين. إنها القدرة على العيش بالقلب ذاته في أبدان متفرقة، وتبادل الأحاسيس والمشاعر القلبية ذاتها.

ومن جانب آخر، لما وصلت شائعة استشهاد عثمان رضي الله عنه إلى المسلمين الذين كانوا ينتظرون في الحديبية، فقد قابل النبي إخلاص عثمان بإخلاص وصداقة أبهى وأروع، إذ أخذ البيعة من الصحابة لقتال المشركين إذا استدعى الأمر ذلك. ثم بعد ذلك أشار النبي ﷺ إلى يده اليمنى، وقال: "هذه يد عثمان"، فضرب بها على يده اليسرى، وقال: "هذه لعثمان".^{١١٧} مظهراً بذلك تقديره ومحبته له. ثم ما لبث أن بعث المشركون برسول لهم لعقد الصلح مع المسلمين، وبعدها عاد عثمان رضي الله عنه سليماً معافى. إذاً؛ إن ما يجلب رضا الله ﷻ، ومحبة رسوله ﷺ هو الإخلاص، والمحبة، والتسليم، والطاعة التي يحملها العبد في قلبه. ولا شيء يُملأ الفراغ الذي يحدث فقدان أو نقصان هذه الأمور. ولهذا السبب يجب الانتباه كثيراً إلى مراعاة أوامر الله ورسوله. ويجب التحرك بفراصة وبصيرة



تامة مرجحين العمل أو الشيء الأهم على ما هو أقل أهمية منه وذلك بحسب ما تستلزمه الأحوال والظروف. وفي هذا الخصوص نورد حادثة جرت مع الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، والتنبيه الذي وجهه إليه النبي ﷺ، إذ يحمل دلالة مهمة لما تحدثنا عنه:

"بعث النبي ﷺ ذات مرة عبد الله بن رواحة في سرية فوافق ذلك يوم الجمعة. فغدا أصحابه، وأما هو فقال لنفسه: أتخلف فأصلي مع النبي ﷺ ثم ألحقهم. فلما صلى مع النبي ﷺ رآه، فقال له: "ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟" فقال عبد الله بن رواحة: أردت أن أصلي معك ثم ألحقهم. فقال النبي ﷺ: "لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت فضل غدوتهم!"^{١١٨}

إن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه هو الصحابي الذي حضر بيعتي العقبة، وبُشر بالشهادة من النبي ﷺ وأخذ يتشوق لها ونالها في معركة مؤتة، وهو الذي قدم ماله لبيت مال المسلمين، ونفسه لله تعالى ليحلق إلى الجنة العالية. فعلى الرغم من تمتع هذا الصحابي الجليل بهذا الفضل

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

والمقام الرفيع فقد أحزن قلب نبينا ﷺ وعرض نفسه لهذا التنبيه والتحذير لمجرد تلكؤه وتأخره البسيط عن طاعة النبي ﷺ وتنفيذ أمره مع أنه كان حسن النية، إذ كانت نيته البقاء بجوار النبي ﷺ وصحبته لمدة أطول.

ولهذا ينبغي الإسراع إلى تنفيذ أوامر الله ورسوله كما وردت دون تأخير - سواء علمت الحكمة منها أم لم يعلم - . إن اتخاذ قرار مناف أو مخالف لما أمر به النبي ﷺ في مسألة ما بشكل واضح - ولو كان بنية حسنة - يمكن أن يتسبب بخسارة كبيرة كما تقدم.

وينبغي التذكر بأن الحماس المفرط الذي ينسي إطاعة الأمر، والآداب المفرطة التي تصل إلى درجة الحيلولة دون إطاعة الأمر، تُعدُّ نوعاً من العصيان. فالإنسان عندما يتحرك بناء على رأيه واعتقاده الشخصي فإنه قد يُساق أحياناً للوقوع في هذا الصنف من الأخطاء وهو يظن بأنه يفعل الصواب. ولذلك يجب عدم تجاوز ما جاء به الله ورسوله أبداً، أي يجب تجنب الرأي الشخصي، وقول "حسب رأيي" عندما تكون هناك أحكام واضحة وبينية في الكتاب والسنة.



يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"حافظ على صلاة التهجد! فمن أراد نيل حظ من المقام المحمود مقام الشفاعة فعليه بصلاة التهجد وعدم تفويتها!" ١١٩

وجاء في القرآن الكريم:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ١٢٠

إن صلاة التهجد فرض خاص بالنبي صلوات الله عليه. وأما بالنسبة لنا فهي سنة هامة ومؤكدة. فعندما أمر الله تعالى حبيبه صلوات الله عليه بالتهجد، وإحياء الأسفار بالصلاة وتلاوة القرآن والذكر، فإنه بالمقابل بشره بالمقام المحمود.

والمقام المحمود هو مقام الشفاعة العظمى لأهل المحشر والذي يغطيه جميع الناس من الأولين واللاحقين. ١٢١

١١٩ محمد هاشم الكشمي: بركات (زبدة المقامات)، ص ٢٩١.

١٢٠ الإسراء: الآية، ٧٩.

١٢١ انظر: روح البيان، ج ١١، ص ٢٣٩، منشورات الأرقم ٢٠١٠.



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

كان النبي ﷺ يولي التهجد أهمية كبيرة ومتميزة جداً، فلم يكن يهمل التهجد أبداً، سواء في الحضر أو في السفر. وكان يوصي أصحابه الكرام أيضاً بهذه العبادة.

فقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

"أشرف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل (أي الذين يقومون بالليل)" ١٢٢.

وقال النبي ﷺ موصياً عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه:

"يا عبد الله! لا تكن مثل فلان! كان يقوم الليل فترك قيام الليل." ١٢٣.

ويقول عمر بن عبسة رضي الله عنه:

أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! هل من ساعة أقرب إلى الله ﷻ من أخرى؟ فقال النبي ﷺ:

"نعم جوف الليل الآخر، فصلِّ ما بدا لك فإنها مشهودة حتى تصلي الصبح." ١٢٤.

١٢٢ المناوي: ١، ٥٢٢.

١٢٣ البخاري: التهجد، ١٩.

١٢٤ النسائي: مواقيت الصلاة، ٣٥.

كان أبو يزيد البسطامي رحمه الله والذي يُعد من كبار أهل الحق قد بدأ تعلم القرآن الكريم وقراءته وهو ما يزال صغيراً. وذات مرة بينما كان يقرأ القرآن وصل إلى قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^{١٢٥}

قال لأبيه:

- يا أبت! من الذي يقول الله تعالى له هذا؟ فقال

أبوه:

- يا بني ذلك رسول الله ﷺ.

فقال أبو يزيد:

- يا أبت مالك لا تصنع كما صنع النبي عليه

الصلاة والسلام؟. فأجابه أبوه:

- يا بني! إن قيام الليل خُصص به ﷺ وبافتراضه

دون أمته. فسكت عنه أبو يزيد. وتابع قراءة القرآن فلما

بلغ قوله سبحانه وتعالى:

وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ
وَتُلُثُهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ...﴾ ١٢٦

قال:

- يا أبت! إني أسمع أن طائفة كانوا يقومون الليل،
فمن هذه الطائفة؟ " فقال الأب:

- يا بني! أولئك الصحابة رضي الله عنهم. فقال أبو يزيد رحمته الله:

- يا أبت! فأَي خير في ترك ما عمله النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؟
قال الأب:

- صدقت يا بني!

وبدأ أبوه بعد ذلك يقوم من الليل ويصلي.

وذات ليلة استيقظ أبو يزيد رحمه الله فإذا أبوه قائم
يصلي. فقال:

- يا أبت! علّمني كيف أتطهر وأصلي معك! فقال
أبوه:

- يا بني! ارقد فإنك صغير بعدُ! فأجابه أبو يزيد بقوله:



- يا أبت! إذا كان يومٌ يصدر الناس أشتاتاً لِيُرَوْا أعمالهم أقول لربي:
- إني قلت لأبي: كيف أتطهر لأصلي معك؟ فأبى، وقال لي: "ارقد، فإنك صغير بعد"، أتحب هذا؟ ، فقال له أبوه:
- لا والله يا بني! ما أحب هذا وعلمه. فكان أبو يزيد من حينها يقوم الليل ويصلي معه وهو ما يزال صغيراً. ^{١٢٧}

وقال أبو يزيد البسطامي رحمته الله:

"لم يُفتح لي شيءٌ (سر) إلا بعد أن جعلت ليلي نهراً".

فمتى ما تمكن المؤمن من استثمار أوقات السحر وفقاً لوصايا النبي عليه الصلاة والسلام وعلى نهجه، فعندها يصير ليله أكثر نورانية من نهاره. ولكي يستطيع العبد تحقيق الفائدة على الوجه الأمثل من مناخ الليالي الممتلئة بالفيوض والروحانية فلا بد من أن يحمل



وَيَسْمَعُونَ كَلِمَةً
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

الفيض القلبي والروحي للأسحار إلى يومه، ويحفظ
نهاراته من المعاصي.

وفي هذا الخصوص قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله لرجل
كان يعاني من عدم قدرته على الاستيقاظ وقت السحر:
"لا تعص الحق ﷻ بالنهار، وهو يقيمك بين يديه
في الليل".

ويقول الحسن البصري رحمه الله:

"إن العبد ليُذنب الذنب فيُحرم به قيام الليل".
إذا؛ إن الرغبة في عبادة الليل تكون بقدر شدة العشق
الإلهي في القلب. وإن إحياء الأسحار بالعبادة والذكر
أجمل تعبير من العبد عن مشاعره الجياشة بالمحبة
والتعظيم لربه ﷻ. ولهذا يُقال عن إحياء الأسحار بعبارة
مشهورة بأنه: "ليس من شأن كل إنسان، وإنما هو عمل
المرابطين".

ويقول الله ﷻ عن عباده السعداء المخلصين
والمتقين الذين يهجرون دفء الفراش وحلاوة النوم في
أوقات السحر ثم يعكفون على عبادته وذكره:



﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^{١٢٨}

وتُعد أوقات السحور في ليالي شهر رمضان المبارك أيضاً وسيلة لكسب "فضيلة إحياء الأسحار". فهي بمثابة التمارين السنوية التي تفضل الله بها علينا للاعتياد على قيام الليالي.

كذلك يُعد شهر رمضان بمثابة موسم لا مثيل له للكسب المعنوي والروحي لاحتوائه على ليلة القدر التي يعادل فضل إحيائها ألف شهر من الأشهر العادية، هذه الليلة التي تعتبر مكرمة إلهية خاصة بأمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام...

فنحن إذا ما تمكنا من مد فضيلة إحياء الأسحار إلى كافة أيام السنة بما في ذلك أسحار شهر رمضان المبارك

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

عملاً بالمبدأ القائل: "اعلم أن كل ما تراه هو الخضر
الضال، وكل ليلة هي ليلة القدر"، فإن عمرنا كله سوف
يتملى - بإذن الله تعالى - بالفيوضات والروحانية،
ويتحول إلى شهر رمضان الذي تحيا لياليه بالتقوى؛
وتصبح لحظة أنفاسنا الأخيرة مثل ليلة الزفاف.

نسأل الله العلي القدير أن لا يخرجنا بلطفه وكرمه
من شهر رمضان إلا وقد تطهرنا من ذنوبنا وخطايانا،
وينعم علينا بحياة نحيها بأجواء رمضان فياضة
بالروحانية، وأن يجعل لفظ أنفاسنا الأخيرة هادئاً مطمئناً
مثل سكون صباح العيد المنفتح إلى السعادة الأبدية.

آمين!



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ

الإمام الرباني

مرحمة الله عليه

— ٣ —

الصيام أجمل ترجمة لصرخات وآهات
المظلومين والمحتاجين والتي تعلو بصمت
قائلة "اشعروا بآلامنا". فإذا لم نستطع
الارتقاء برحمتنا وشفقتنا فوق كل الشهوات
الفانية فإننا نكون قد ظلمنا أنفسنا.

ولنعلم بأن الدول التي لا تنشر بذور الرحمة
فوق ترابها فلن تنجو من تحول مستقبلها
إلى ساحة للعذابات والمآثم.



حِكْمٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الإمام الرباني رحمته الله - ٣ -

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"ينبغي أن يسعى العبد بجميع الأفعال والحركات والسكنات إلى رضا المولى جل سلطانه... ويكون كل من الظاهر والباطن متوجهاً إلى الحق وَعَلَيْكَ وذاكراً له سبحانه.

فمثلاً إذا اختار العبد النوم الذي هو غفلة من أوله إلى آخره بنية دفع التكاسل من أجل أداء طاعاته بأفضل وجه، يكون ذلك النوم بهذه النية عين العبادة ما دام في النوم، فكأنه في الطاعة لكونه بنية أداء الطاعة، وقد ورد في الخبر "نوم العلماء عبادة".^{١٢٩}

فينبغي على ابن آدم الذي خُلق من أجل عبادة ربه أن يبذل غاية جهده لإدراك هذه الحقيقة والشعور بها إلى آخر نفس من حياته. فالمؤمن الحق يكون في بحث

١٢٩ انظر. الديلمي: الفردوس، رقم ٦٧٣١. الإمام الرباني: المكتوبات،

٣، ٢٢٤، رقم ١٧، دار ياسين للنشر، اسطنبول ٢٠٠٧ - ٢٠١٠.



وَسُبْحَانَكَ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

دائم عن رضا الله ﷻ في كل لحظة من لحظات حياته.
وإن المؤمن الكامل لا ينظر إلى أي عمل خير يقوم به في
رحلة هذا البحث بعين الكفاية، وإنما يتشوق باستمرار
إلى الاستزادة من الخير.

إن العبودية للحق ﷻ ليست فقط عبارة عن العبادات
التي يتم الإيفاء بها وإتمامها في أوقات مخصوصة
ومحددة مثل الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج. وإنما
العبودية لله تعالى هي إلى جانب هذه العبادات نظام
"منهج" حياتي يدوم مدى العمر ويحيط بالمؤمن في كل
لحظة وآن مثل الأخلاق الحميدة والمعاملات. ويُعد
وعد الله بإعطاء الأجر والثواب على كافة الأفعال التي
تحقق رضاه خارج هذه العبادات وكذلك تحريم كل
الأفعال التي تجلب غضبه من هذا القبيل.

وبناء على ذلك ينبغي على المؤمن أن يبذل جهده
لربط كافة الأفعال البشرية وأعمال الدنيا التي تقع خارج
العبادات المنصوص عليها بغايات سامية مثل طاعة
الحق ﷻ، ليحقق بواسطتها رضا الله تعالى. وقد قال
الإمام الرباني عن هذه الحقيقة أيضاً:



"ينبغي أن لا يكون حظ النفس ملحوظاً ومنظوراً إليه في تناول الأطعمة اللذيذة، ولبس الألبسة النفيسة، بل اللائق في استعمال الأطعمة والأشربة أن لا ينوي شيئاً غير حصول القوة لأداء الطاعات، وفي لبس الثوب النفيس ينبغي أن ينوي التزين المأمور بقوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾^{١٣٠}

أي عند كل صلاة، وأن يشوبه نية أخرى مثل الرياء، والتفاخر...".^{١٣١}

فإذا ما قام الإنسان حتى بواجباته وتلبية احتياجاته المعيشية اليومية بنية خالصة لنيل رضا الله تعالى، فإنه يضيف على تلك الأفعال طابع العبادة.

إن ديننا الحنيف السامي لكي يبعد المؤمنين عن أهواء النفس والأغيار ويوجههم نحو الأمور الربانية، فقد ربط حتى الحوادث المادية والظاهرية بغايات روحية، وأضفى عليها معنى علوياً متسامياً. إنه لم يسمو فقط بأفعال الإنسان العلوية المتعلقة بالعبادات والأخلاق،

١٣٠ الأعراف: ٣١.

١٣١ الإمام الرباني: المكتوبات، ١، ٢٩٨، رقم ٧٠.



وَسُبْحَانَكَ حُكْمٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وإنما أضيف السمو والمثالية حتى على أفعاله المتولدة عن احتياجاته البدنية.

فمثلاً؛ يُعد الطعام والشراب حاجةً بدنية. إلا أن الإسلام سما بهذه الحاجة البدنية وحولها إلى وسيلة لنيل الأجر والثواب عن طريق ربطها بنية تقوية العبادات. وكذلك الأمر بالنسبة إلى بدء الطعام بالبسملة أي بذكر اسم الله تعالى، فإنه يحمل الإنسان في كل لقمة يتناولها على التفكير بعظمة نعم الله وإحسانه، وبالتالي يدفعه إلى الحمد، والشكر، والذكر. أي أن الطعام الذي يتم تناوله إلى جانب تحقيقه لفائدة مادية في الجسم فإنه يزينه بالفيوض والروحانيات، وبذلك يصبح نوعاً من العبادة. فهذا هو ديننا الإسلامي الحنيف يربط كل الحاجات الحياتية للإنسان بغايات علوية كما في المثال المذكور، ويقدم للمؤمنين فرصاً في كل لحظة من لحظات حياتهم لنيل رضا الحق ﷻ.

إن طعام وشراب المؤمنين العارفين من أصحاب اليقظة القلبية التي تمكنهم من استغلال هذه الفرص، وحركاتهم وسكناتهم، وقيامهم وقعودهم، وحتى



منامهم يصبح كل ذلك بحكم العبادة بفضل وبركة إخلاص النية. إلا أن العكس أيضاً صحيح، إذ أنه حتى عبادات الغافلين عن هذه المكرمات الإلهية تتحول إلى أفعال جالبة للغضب الإلهي لاختلاطها بالنوايا النفسية مثل الرياء، والتفاخر.

إذاً؛ لكي نتمكن من إحياء كل لحظة من الحياة بوجد العبادة ينبغي أن نخضع قلوبنا لتربية معنوية وروحية في هذا المجال. ويتوجب في هذا الصدد اكتساب "نية" حسنة. لأن النبي ﷺ يقول في الحديث الشريف:

"نية المؤمن خير من عمله". ١٣٢

وعدا عن ذلك؛ فإن الله تبارك وتعالى يهيئ الكثير من المكرمات الاستثنائية لعباده الذين يعملون بإخلاص لكي يتمكنوا من جعل حياتهم بحالة عبادة دائمة. فمثلاً قد يعجز العبد أحياناً عن الإيفاء بنافلة يداوم عليها في الظروف الطبيعية لتعرضه إلى عذر شرعي، مثل المرض، أو السفر، أو الإرهاق الشديد، أو الشيخوخة.

وَسَيُجَنَّبُكَ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

ففي هذه الحالة يهبه الله تعالى أجر ذلك العمل وكأنه قد قام به بسبب الإخلاص في النية.

وقد قال المفسرون عن قول الله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^{١٣٣}

"إن أجر العبد عن العمل البدني يستمر إلى ما لا نهاية حتى وإن أصبح عاجزاً عن الاستمرار بتنفيذه، وذلك بقدر ما أظهره من إخلاص في النية، ومن جهد للقيام به عندما كان صحيحاً معافى". ولهذا ينبغي أن نداوم على العبادات والأعمال الصالحة بثبات عندما تكون الفرصة متاحة.

إن عبادات النبي ﷺ الذي يُعد أكثر وأفضل شخصية نموذجية أكرمنا به كانت مهيمنة على كل ميدان من ميادين حياته بآتم توازن وانسجام. فعندما يُنظر إلى حياته المباركة يُخيل إلى المرء وكأنه قد أمضى كل أوقات ولحظات عمره بالعبادة.



والحال أن النبي ﷺ إلى جانب محافظته على متابعة حياة العبادة على أعلى سوية، لم يتوانى ولم يقصر في القيام بالخدمات والأعمال الدنيوية أيضاً، وحتى أنه قام بها على أكمل وجه. وحقيقة، إن النبي ﷺ من جهة قد استمر بكل دقة وحرص في أداء عباداته ليلاً نهاراً، وبلغ الدين الذي أرسله الله به للناس متحماً في سبيل ذلك مختلف أنواع الصعوبات والمشقات، وبين وشرح للناس جوانب الوحي المحتاجة إلى التوضيح بأقواله وأفعاله، ومن جهة أخرى اهتم بعائلته وأهل بيته وقام على شؤونهم، وشارك الفقراء همومهم وآلامهم، واشترك في الجنازات والمآتم، ووضع أسس دولة سليمة وقوية لا تجارى، وبعث بالرسل إلى الملوك والقيصرة يدعوهم إلى الإسلام، واستقبل الرسل والسفراء وأحسن وفادتهم وضيافتهم، وسير الجيوش وتولى إدارتها وتنظيمها، وجاهد وقد تضحيات جسام في سبيل إزالة العوائق والموانع التي تظهر أمامه خلال قيامه بتبليغ دين الله تعالى.

بمعنى أن أي من الأعمال الدنيوية لم تشغله أو تمنعه

وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

قد أحيأ كل لحظة من لحظات حياته بوجد العبادة لأنه قد قام بالمشاغل الدنيوية بما يوافق رضا الله تبارك وتعالى. فإلى جانب قيامه بأداء الوظائف والمهام اليومية الجسيمة الملقاة على عاتقه والتي لا يمكن لأحد تحملها، فقد تعبد الله تعالى بصورة أفضل وأكمل بكثير من الزهاد الذين اعتزلوا في المعابد ووقفوا أنفسهم للعبادة.

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"إن أداء فرض واحد مع الجماعة أفضل من ألوف من الأربعينات (أي الفرائض التي تقام في الخلوات بعيداً عن الجماعة، أو النوافل). وإن الذكر والفكر مع مراعاة الآداب الشرعية أفضل وأهم".^{١٣٤}

(الإسلام يرفض الفردية والشخصية "الأنانية"؛ ويشجع على الحياة الاجتماعية والإيثار. وإن أول مظهر من مظاهر التربية الاجتماعية يتجلى في الصلوات المقامة مع الجماعة. فهنا تتم زراعة بذور مشاعر وحدة المؤمنين وتكاتفهم وتضامنهم، ثم تنمو وتشتد.



فيقول النبي عليه الصلاة والسلام:

"... عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوة الجنة فيلزم الجماعة..."^{١٣٥}

"... إن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كثر فهو أحب إلى الله تعالى"^{١٣٦}

وجاء الصحابي عبد الله بن أم مكتوم إلى رسول الله ﷺ. وكان ضريراً، فقال:

- يا رسول الله! إن المدينة كثيرة الهوام والسباع، فهل لي رخصة أن أصلي في بيتي؟

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

- "أسمع حي على الصلاة، حي على الفلاح؟ فحي هلا -أي عليك بالذهاب إلى المسجد، وليست لك رخصة-"^{١٣٧}

١٣٥ الترمذي: الفتن، ٧/ ٢١٦٥.

١٣٦ أبو داود: الصلاة، ٤٧/ ٥٥٤؛ النسائي: الإمامة، ٤٥.

١٣٧ أبو داود: الصلاة، ٤٦/ ٥٥٣.



وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

فكما يتبين أن النبي ﷺ الذي يُعد في غاية الرحمة والشفقة بأمته قد أعطى هذا الجواب لصحابي أعمى عاجز عن الرؤية. فما بال المبصر!. إذاً ينبغي التفكير بجدية بمدى الضياع والخطورة والغفلة المروعة التي يشكلها التخلف عن الجماعة بدون توفر عذر شرعي...
تقول شفاء بنت عبد الله رضي الله عنها:

"دخل علي بيتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فوجد عندي رجلين نائمين، فقال: وما شأن هذين ما شهدا معي الصلاة؟، قلت: يا أمير المؤمنين صلياً مع الناس - وكان ذلك في رمضان - فلم يزالا يصليان حتى أصبحا، وصلياً الصبح، وناما. فقال عمر رضي الله عنه:

- لأن أصلي الصبح في جماعة أحب إلي من أن أصلي ليلة حتى أصبح".^{١٣٨}

هناك الكثير من وظائف وواجبات العبودية التي ينبغي على المؤمن القيام بها في كل وقت. وإن ما يليق بالمؤمن الكامل هو إيلاء الأولوية للإيفاء بأكثرها أهمية،

١٣٨ عبد الرزاق: المصنف، بيروت ١٩٧٠، ١، ٥٢٦؛ الموطأ: صلاة الجماعة، ٧.



وثم السعي جهد استطاعته للقيام بالواجبات الأخرى الأقل أهمية.

لا ريب أن ما يتصدر قائمة وظائف العبودية المترتبة على عائقنا هو "الفرائض". وإن الانشغال في الوقت الذي يتوجب فيه أداء فرض من الفرائض بأعمال أخرى غيره يُعد تصرفاً خاطئاً - حتى ولو كانت تلك الأعمال قيمة مثل عبادات النوافل، وأعمال الخير - .

فإيفاء المؤمن بالفرائض في حياته التعبدية أولى من كل شيءٍ آخر. وإن أداء النوافل من العبادات لا يكون إلا بعد الفرائض إلحاقاً وإضافة إليها. فقد جاء في الحديث القدسي فيما يرويه النبي ﷺ عن الله تعالى:

"... ما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سَمْعَهُ الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه..." ١٣٩



وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

إِذَا؛ فَاللَّهُ ﷻ يَرِيدُنَا أَنْ نَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِاسْتِمْرَارٍ بِالنَّوَافِلِ
الْمُضَافَةِ إِلَى الْفَرَائِضِ الَّتِي يَتِمُّ أَدَاؤُهَا بِانْتِظَامٍ لِنَكُونَ
فِي النَتِيجَةِ مِنَ الْعِبَادِ الَّذِينَ أَحَبَّهُمْ. وَيَبِينُ لَنَا بِأَنَّهُ لَيْسَ
هُنَاكَ عَمَلٌ أَفْضَلُ وَأَحَبُّ مِنَ الْفَرَائِضِ مِنْ أَجْلِ نَيْلِ هَذِهِ
الدرْجَةِ الْاسْتِثْنَائِيَّةِ الَّتِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الْعِبَادِيَّةِ لَهُ. أَيْ
أَنَّهُ يَعْلَمُنَا بِأَنَّ الْفَرَائِضَ هِيَ شَرْطُ ضَرْوَرِي لَضَمَانِ قَبُولِ
الْأَعْمَالِ الْآخَرَى.

يَقُولُ الْإِمَامُ الرَّبَّانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

"اعْلَمُوا أَنَّ الْقَلْبَ جَارُ اللَّهِ ﷻ. وَلَيْسَ شَيْءٌ
أَقْرَبَ إِلَى جَنَابِ قُدْسِهِ كَالْقَلْبِ. فَيَأْكُمُ وَإِذَاءُ أَيِّ قَلْبٍ
مُؤْمِنًا كَانَ أَوْ عَاصِيًا، فَإِنَّ الْجَارَ وَإِنْ كَانَ عَاصِيًا يُحْمَى.
فَاحْذَرُوا مِنْ ذَلِكَ وَاحْذَرُوا، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْكُفْرِ الَّذِي
يَسَبِّبُ إِذَاءَ اللَّهِ تَعَالَى ذَنْبٌ مِثْلُ إِذَاءِ الْقَلْبِ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ
مَا يَصِلُ إِلَيْهِ ﷻ".^{١٤٠}

(يَبِينُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْرَبُ إِلَى عِبَادِهِ
مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^{١٤١}، وَأَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ^{١٤٢}.)

١٤٠ الإمام الرباني: المكتوبات، ٣، ٣٢٦، رقم ٤٥.

١٤١ انظر: ق: ١٦.

١٤٢ انظر: الأنفال: ١٦.



ولذلك ينبغي أن نهتم ونعتني كثيراً بالقلب الذي هو محل النظر الإلهي.

حيث قال الشاه النقشبندي:

"ليس من قلب إلا ونظر الحق ﷻ إليه. سواء علم صاحب ذاك القلب أم لم يعلم!..."^{١٤٣}

وبذلك فإنه لفت الانتباه من جهة إلى أن إحياء القلوب سوف يكون وسيلة لنيل الفيوض من النظر الإلهي في تلك القلوب، ومن جهة أخرى أشار إلى مدى خطورة العمل الذي يجرح القلب والنتيجة الوخيمة التي تترتب عليه.

وإن أعظم الهمم والمسااعي لأولياء الله ﷻ هي تحقيق الشفاء الأبدي للقلوب الغافلة والمريضة التي ابتعدت عن الحقائق الإلهية بنور الإسلام والإيمان. وإحياء قلوب المؤمنين المحزونة والمتكدرة بالشفقة والرحمة.)

وَسَيُحْكَمُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"شهر رمضان جامع لجميع الخيرات والبركات، وكل بركة وخير يصل إلى أحد من أي وجه كان في كل السنة إنما هو قطرة من بحر بركات هذا الشهر العظيم القدر الذي لا نهاية له، والجمعية في هذا الشهر سبب للجمعية في جميع أيام السنة، والتفرقة فيه سبب للتفرقة في كل السنة. فطوبى لمن مضى عليه هذا الشهر المبارك وهو راضٍ عنه، وويل لمن هو ساخط عليه فمنع من البركات، وحرَم المبرات والخيرات".^{١٤٤}

(يُعد شهر رمضان فصل الخيرات، أي أنه ربيع معنوي وروحي لكل عام. لأنه وقت فياض بالبركات الروحية حيث يكتسب قيمة وأهمية منقطعة النظير بنزول القرآن الكريم فيه، واحتوائه على ليلة القدر التي هي خير من ألف، وتفتح فيه أبواب العفو والمغفرة.

إن الجمعية في هذا الشهر التي تبعث السرور والانتشاء في الأرواح، "أي الصحبة القلبية مع المولى

١٤٤ الإمام الرباني: المكتوبات، ١، ٢٤، رقم ٤، دار جيله Çile للنشر، اسطنبول ١٩٧٧.

ﷺ"، تُعد كسباً روحياً ومعنوياً استثنائياً ينعكس على العام كله. ولهذا يُعتبر الدليل على قبول عبادتنا في هذا الشهر "رمضان المبارك" هو ماهية أحوالنا واستقامتنا التي تعقب شهر رمضان.

وإن الذين يهبون في هذا الشهر المبارك قلوبهم لله تعالى، وأبدانهم للعبادة ثم يحيون ويعمرون أوقاتهم بالتضحيات والخدمات المليئة بالصوم، والتراويح، وتلاوة القرآن الكريم، والذكر، والاستغفار، والفرط، والزكاة، والصدقات، والشفقة، والرحمة يستمرون بنيل بركات هذه الأعمال لعام كامل.

وبالمقابل فإن الذين يغفلون عن هذا الوقت المبارك ثم يبتعدون عن الرحمة الإلهية يظلون معرضين لخسران الفراق والغفلة طيلة أيام السنة.

حيث أن النبي ﷺ قال في الحديث الشريف:

"إن جبريل عليه السلام عرض لي فقال: بَعْدَ من أدرك رمضان فلم يُغْفَرْ له! قلتُ: آمين".^{١٤٥}



وجاء في حديث آخر:

"ويل لمن أدرك رمضان ولم يغفر له. وإذا لم يغفر للمرء في رمضان فمتى يغفر له؟!".^{١٤٦}

ولهذا فإن إحياء رمضان المبارك يُعد مسألة بالغة الأهمية في نظر المؤمنين العارفين. فقد قال معلى بن فضل:

"كان السلف الصالح يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ويدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم".^{١٤٧}

ومن جانب آخر يُعد شهر رمضان من خلال صوم نهاره والجوع والعجز الذي يذيقه للصائم خير تربية روحية تكفل فهم ومعرفة أحوال المحتاجين والفقراء بالشكل الأمثل. حيث أن الله ﷻ يقول في كتابه العزيز:

﴿... تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ...﴾^{١٤٨}

وذلك لحثنا على التفتيش عن المحتاجين الذين يستحون من سؤال الناس وطلب العون منهم لشدة

١٤٦ ابن أبي شيبة: المصنف، ٢، ٢٧٠؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٣، ١٤٣.

١٤٧ قوام السنة: الترغيب والترهيب، ٢، ٣٥٤.

١٤٨ البقرة: ٢٧٣.



عفتهم، ومعرفة أحوالهم، ثم السعي إلى تقديم المساعدة لهم جهد استطاعتنا. أي أن الله ﷻ يريد أن تكتسب قلوبنا حساسية عالية في مشاعر الشفقة، والرحمة، والجود والكرم والسخاء، والتضحية.

إذاً؛ إن رمضان المبارك يُعد مدرسة المعرفة التي تعلمنا بأننا مسؤولون عن الفقراء، والمحتاجين، والمحرومين، وأبناء السبيل المحيطين بنا، وأن لهم حقوقاً متعلقة بدمتنا.

نورد فيما يأتي قصة تعد خير مثال للاعتبار كي نقف مع أنفسنا وقفة محاسبة وجدانية وضميرية حول مسؤوليتنا تجاه الفقراء والمشردين، والغرباء، وخاصة في شهر رمضان:

ذات مرة ذهب السلطان مصطفى الثالث في شهر رمضان المبارك إلى مائدة إفطار في قصر شيخ الإسلام محمد أمين أفندي. وأثناء الحديث قال السلطان:

- يا أفندي! أود بين الحين والآخر المجيء لزيارتكم، إلا أنني أجد مكان قصركم بعيداً للغاية.

فأجابه محمد أمين أفندي بقوله:



وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّكَ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

- يمكنكني أن أجد بيتاً في مكان قريب في جواركم.
ولكن ليس في أي من البيوت التي رأيتها في هذه الأنحاء
مطبخ.

أثار هذا الكلام حفيظة السلطان واستغرابه، ولما
سأله:

- يا له من أمر عجيب، ألا يُطهى الطعام في هذه
البيوت؟

أجابه شيخ الإسلام:

- إن طعام هؤلاء جميعاً يخرج من بيت هذا الفقير
أمامكم صباحاً ومساءً. لذا لا أريد مفارقة هذا المكان.

فإذا ما أدرك رمضان المبارك بمثل هذا القلب
الرقيق وبروح الإيثار والتضحية، فإنه يصبح واحداً من
أفضل الشاهدين للعبد عند المولى ﷻ.

وبناء على ذلك، يعتبر التمكن من إحياء رمضان
بالشكل اللائق به وتوديعه وهو راضٍ عنا والنجاح
بالوصول إلى رمضان العام اللاحق دون فقدان القيم
الروحية التي كسبناها فيه، وبالتالي التمكن من عيش
حياتنا ضمن روحانية رمضان الدائمة، يعتبر سعادة



عظيمة ما بعدها سعادة. وفي الواقع فإن العيد الحقيقي هو بالأساس مظهر لهذه السعادة.

أي؛ العيد الحقيقي هو لمن استطاع الخروج من رمضان وقد جاز على شهادة العفو الإلهي.

العيد مباركة وتهنئة للعبودية الخالصة المقدمة للحق ﷻ.

العيد هو الدرس الأخير لرمضان المبارك الذي هو مدرسة المعرفة.

العيد موسم لزيارة الأصحاب والأقارب، والمرضى، واليتامى، والمشردين، والمحرومين، والمظلومين وتفقد أحوالهم، والتخفيف من معاناتهم، ومشاركة المؤمنين أوجاعهم وهمومهم، والحاصل هو عيش الأخوة الدينية في حالة جمعية.

العيد ضيافة إلهية تبعث برودة الجنة في القلوب الملتهبة.

العيد أيام عبادة اجتماعية معمرة بالخدمات والتضحيات، والإنفاق إضافة إلى العبادات الفردية.

وليس أيام صفاء ومتعة نفسانية يعيشها البعض بترف

وَسُبِّحْهُ وَكَبِّرْهُ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وبطر مثل العطل والإجازات المليئة بجنون الإسراف والتبذير.

العيد أيام للقضاء على الانكسارات القلبية والشدائد والمحن، وجبر للخواطر بالأخوة الدينية.

نسأل المولى ﷺ أن يقدرنا على الشعور بالآلام ومعاناة إخوة بالدين في مشارق الأرض ومغاربها، ويجعل قلوبنا منازل رحمة تأويهم جميعاً، وأن يمكننا من تضميد جراحهم سواء بالمساعدات المادية أو بالدعاء. ونسأله أن تشرق شمس سعادة عيد حقيقي على عالمنا الإسلامي الغارق في الآلام والمصائب في هذا العصر...

ونرجو الله العلي القدير أن لا يخرجنا جميعاً بلطفه وكرمه من شهر رمضان إلا وقد تطهرنا من ذنوبنا وخطايانا وينعم علينا بحياة محاطة كلها بأجواء رمضان فياضة بالروحانية، وأن يجعل لفظ أنفاسنا الأخيرة هادئاً مطمئناً مثل سكونية صباح العيد المنفتح إلى السعادة الأبدية.

آمين!..

حكم من أولياء الله
الإمام الرباني

مرحمة الله عليه

-٤-

ما الحياة الدنيا أمام أبدية حياة الآخرة إلا بمثابة قطرة
من بحر عظيم.

وعلى ذلك؛ فإذا ما جاء الجواب عن السؤال المصيري
"ما هي الحياة؟" بأنها عبارة عن رطوبة التراب الباردة
والصمت المطبق المخيم على حجارة القبور فعندها
أي أمر يمكن أن يكون أكثر مأساوية ومرارة من حياة
فانية قصيرة مضاعة ومستهلكة بمثل هذه الغفلة؟..
يلخص المرحوم نجيب فاضل العمر الذي يُمضى
بالغفلة بقوله:

ثلاثون عاماً ساعتي تعمل وأنا متوقف؛ أطلق الطائرات
الورقية وأنا غافل عن السماء..



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الإمام الرباني رحمته الله - ٤ -

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"إن المقصود من خلق الإنسان هو أداء العبادة
المأمور بها، والمقصود من أداء العبادة هو تحصيل
اليقين الذي هو حقيقة الإيمان".^{١٤٩}

يقول الحق تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^{١٥٠}

فسر ابن عباس رضي الله عنه عبارة "ليعبدون" الواردة في هذه
الآية المباركة بـ "ليعرفون".

فمثلاً يمكن أن يُعتبر السجود الذي يكون فيه العبد
أقرب إلى ربه تعالى من أي لحظة أخرى في الدنيا لمن
ينظر إليه من الخارج عبارة عن حركات شكلية. إلا أن
المعنى الذي يحمله هو اعتراف المؤمن وهو يضع جبينه

١٤٩ الإمام الرباني: المكتوبات، ١، ٣٦٩، رقم ٩٧.

١٥٠ الذاريات: ٥٦.



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

بخشوع تام على الأرض في الحضرة الإلهية بعجزه،
وعبوديته. إنه تعبير عن استسلامه لربه وخضوعه له،
وبيان لمعرفته بالقلب وهو يقول بلسان حاله:

"أنت ربي، وأنا عبدك؛ أنت خالقي، وأنا مخلوقك!"

فقد كان صحابة رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم
إلى السماء في صلاتهم وذلك إلى أن نزل قول الله
تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَاشِعُونَ﴾^{١٥١}

وبعد نزول هذه الآيات بدأ الصحابة الكرام ينحنون
برؤوسهم نحو الأرض بخشوع كبير.^{١٥٢}

لأنهم كانوا قد غاصوا وتعمقوا في حقيقة عبادة
الصلاة، ووصلوا إلى عرفان عرض عبوديتهم على
الحق ﷻ ضمن إدراك تام لعجزهم، وفقرهم أمام القدرة
والعظمة الإلهية.

١٥١ المؤمنون: ١ - ٢.

١٥٢ انظر. الطبري: التفسير، ١٩، ٨؛ السيوطي: لباب النقول، ص ١٦٥.



إذا؛ فغاية العبادة والعبودية هي الوصول إلى معرفة الله بمثل هذه المشاعر والمعرفة القلبية لله تعالى. فهي الوصول إلى اليقين، أي إلى المعنى الحقيقي البعيد عن الشك والشبهات. وهي العيش بقلب محقق لمقام "الإحسان" أي بإيمان قطعي وكأن الله أمام الأعين. هي تحول حقيقية كوننا في كل لحظة تحت الأنظار والمراقبة الإلهية إلى حالة إدراك وشعور في قلوبنا.

بالنسبة للإنسان المؤمن العارف ليس في الحياة غاية أعظم من العبودية، ولا مرتبة أعلى من مرتبة العبودية. إذ أن النبي ﷺ قد خير بين أن يكون "نبياً حاكماً، ملكاً" وبين أن يكون "نبياً عبداً" فاختار أن يكون "نبياً عبداً".^{١٥٣} وقد أشار بهذا الاختيار والتفضيل بأن الملك، والمكانة، والسعادة التي تمنحها العبودية لله أعظم، وأهم، وأبقى من الملك، والسعادة التي يمكن أن تحققها المقامات والممالك الدنيوية لدرجة عدم إمكانية إجراء المقارنة بينهما.



وَسَيُجَنَّبُكَ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وحقيقة؛ ما الفائدة من أن تُعطى الدنيا بأكملها
للإنسان حتى لو عاش فيها ألف سنة! أفليس المكان
الذي سوف يأوي إليه في نهاية المطاف هو عبارة عن
حفرة مظلمة في باطن الأرض؟

وعلاوة على ذلك فإن الحياة الدنيا ليست أمام أبدية
الحياة الآخرة إلا بمثابة قطرة من بحر عظيم.

وعلى ذلك؛ فإذا ما جاء الجواب عن السؤال
المصيري "ما هي الحياة؟" بأنها عبارة عن رطوبة
التراب الباردة والصمت المطبق المخيم على حجارة
القبور، فعندها أي أمر يمكن أن يكون أكثر مأساوية
ومرارة من حياة فانية قصيرة مضاعة ومستهلكة بمثل
هذه الغفلة؟..

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ
ضُحَاهَا﴾ ١٥٤



ولذلك لا يمكن أن يكون هناك أمر أكثر عقلانية من العمل على جعل هذه الحياة الدنيا القصيرة رأسمال سعادة الحياة الأبدية. وأما السبيل إلى ذلك فهو الالتزام بالعبودية لله تعالى كما أمرنا بها. وقد أوصانا أهل الحكمة بناء على هذه الحقيقة، بقولهم:

"الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة".^{١٥٥}

وينصحننا الشيخ عبد الله الدهلوي بضرورة أن نعيش خلال هذا العمر الفاني بحالة قناعة وتربية النفس فنبتعد عن المحرمات والشبهات، وأن نكتف كافة جهودنا نحو العبودية لله تعالى، حيث يقول:

"ما الحياة الدنيا إلا يوم واحد، وفي ذلك اليوم ينبغي علينا الصيام".^{١٥٦}

ومن جهة أخرى، فإن كل عبادة - إذا أُديت بحقها - تُعد غذاءً روحياً يقرب العبد إلى الحق ﷻ، ويقوي إيمانه، ويطهر قلبه من الشكوك والشبهات، ثم يبلغه السكينة والطمأنينة الحقيقية.

١٥٥ الإمام الغزالي: مكاشفة القلوب، ص ١٦٦.

١٥٦ رؤوف أحمد: دار المعارف، ص ١٤٣.



وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّكَ بِالْعَمَلِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

إن الإيمان يشبه المصدر الذي ينبعث منه الضوء.
وإن الأهواء والعواصف النفسانية والشيطانية تظل
متربصة على مدى أيام العمر من أجل إطفاء هذا الضوء.
والعبادات هي مثل الفانوس حيث يحمي ضوء الإيمان
في مواجهة هذه العواصف العاتية.

فكلما ازداد الصدق والإخلاص في أداء العبادات،
واستقامت الكيفية، كلما نور الإيمان قوة وتألقاً في
القلب.

يبين الأستاذ سامي أفندي الحالة القلبية للمؤمنين
الذين وصلوا ببركة وفضل العبادات والطاعات إلى
إيمان راسخ لا يتزعزع ولا يهتز، بالتشبيه الآتي:
"ينبغي أن يكون المؤمن صاحب الاستقامة ثابتاً
وراسخاً كالجبل. لأن للجبل أربعة مزايا، إذ:

- (١) لا يذوب بالحرارة.
- (٢) ولا يتجمد بالبرد.
- (٣) ولا ينقلب بالرياح.
- (٤) ولا ينجرف بالسيول".^{١٥٧}



أي أن المؤمن صاحب الاستقامة يحافظ على قوة إيمانه بالرغم من كل الظروف الصعبة والسلبية التي يمر بها.

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"لا سبيل للمداينة في المحبة، فإن المحب واله ومولع بالمحبوب هائم به، لا يطيق مخالفته، ولا أن يميل إلى مخالفته. ولا أن يلين لهم بوجه من الوجوه".^{١٥٨}

(الإيمان بالحق ﷻ محبة داخلية قلبية. وأما المحبة فهي عمل القلب. وهناك إرادة في كل عضو إلا القلب، فليس فيه إرادة. فلا يمكن لأي شيء أن يحمله على الحب كرهاً وجبراً بشكل من الأشكال. وكذلك لا يمكن حمله بالإجبار والاضطرار على كراهية أي شيء أبداً.

ولهذا السبب فإن المؤمن الحقيقي يحفظ قلبه الذي هو مكان ومقر الإيمان عن كل ما لا يحبه الله تعالى، ولا يميل إليها. وذلك لأن ادعاؤه محبة الله تعالى ثم ميله في الوقت ذاته إلى ما لا يحبه لا ينسجم ولا يتوافق مع الإيمان الحقيقي.

إِذْ أَنْ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ:

"المرء مع من أحب". ١٥٩

فعلينا أن نفكر ملياً: إلى أي درجة قلوبنا مع الله ﷻ؟
وإلى أي درجة مع النبي ﷺ؟ وإلى أي درجة مع ما يحبه
الله ورسوله؟ وبالمقابل؛ إلى أي درجة هي مع الأهواء
والرغبات النفسية؟ وما مقدار ميلها إلى أعداء الله
ورسوله، وإلى مغريات الذنوب، وإلى مكائد الشيطان؟
ففي المحبة الحقيقية يحب المحب ما يحبه محبوبه،
ويكره ما يكرهه محبوبه. فالمحب لله ورسوله يحب
أيضاً الخصال الجميلة والحميدة، مثل السخاء، والأدب،
والحياء، والشفقة، والرحمة، والعفو. وبالمقابل فإنه يكره
الخصال الذميمة والخبیثة، مثل الوقاحة، والوحشية،
والبخل، والظلم والاعتداء. وذلك لأن المحبة الحقيقية
تنبع من الأمور المشتركة بين المحب والمحبوب. وفي
الحب الحقيقي تسري خصائص المحبوب إلى المحب.
والمحبة تزداد بازدياد رؤية خصال المحبوب في
ذات المحب.



ومثال ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه. فقد كان أبو بكر رضي الله عنه أكثر من سرت إليه أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم النموذجية والمثالية. وذلك لأن أكثر الصحابة محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفناء فيه هو أبو بكر رضي الله عنه. إذ عندما ننظر إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكأننا نشاهد أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أي؛ إن الأمر لا ينتهي بقول "إني أحب الله ورسوله". فإن كنا نحب فينبغي أن ننظر: ما مقدار رحمتنا، وشفقتنا، وما هو مستوى أخلاقنا؟ وما مدى توفر خصال النبي صلى الله عليه وسلم فينا؟ وهل بإمكاننا التخلص من الأنانية؟ وهل نهتم بهموم الأمة، ونمتلك روح الإيثار؟ هل باستطاعتنا أن نعكس محبتنا على أحوال وتصرفاتنا؟ أم أن محبتنا عبارة عن ادعاء أجوف لا يتدعى حدود القول؟!

وكذلك لا يكفي قول "إني أحب القرآن". وإنما ينبغي أن نكثر دائماً من طرح تساؤلات على أنفسنا حول القرآن، وذلك من قبيل: ما مقدار سريان الأخلاق القرآنية إلينا؟ وما مدى عملنا بأحكام القرآن؟ هل نرسل أبناءنا إلى حلقات ومعاهد تعليم القرآن الكريم، وما مدى مساعدتنا لهم بتحصيل الثقافة والأخلاق القرآنية؟ ما مدى تفكيرنا

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

بموقف القرآن الكريم منا يوم القيامة، فهل سيكون شفيعاً لنا، أم سيكون - بسبب إهمالنا - خصيماً؟... إن ميزان الحب الحقيقي هو التضحية. فالكلمات الجافة التي لا يتم إثبات صدقها بالتضحية ليس لها أي معنى أو أهمية على الإطلاق. يحذر مولانا جلال الدين الرومي المغفلين الذين يدعون الحب وهم في الحقيقة بعيدون كل البعد عنه بقوله:

"لا تصبحوا سخرية وأضحوكة الكلام".

وحتى الإنسان المحب لبلده وما إن يتعد عنه قليلاً يبدأ بالشوق والحنين إلى هوائه، ومائه، وترابه. وحتى وإن كان ذلك البلد صحراء قاحلة فإنه مع ذلك يشعر بالحنين إليه، حيث يحمل في داخله رابطة قلبية مع كل شيء من أشياء بلده. فهذا هو شأن الحب الحقيقي.

يروي لنا مولانا قصة في "المنوي" فيقول:

ذات مرة صادف مجنونٌ الذي هام على وجهه في البراري والصحاري من شدة عشقه ليلى كلباً ضعيفاً قد تساقط وبره، واللعب يسيل من فمه، فأخذ يمسح على جسده بمنتهى الشفقة ويقبل عينيه. فلما رآه الناس على



هذه الحالة انتقدوه بشدة، واستنكروا اهتمامه وعنايته المفرطة بهذا الكلب الحقير. فقال لهم:

- آه لو نظرتم إليه بعيني! لما رميتوني بالملامة، ولعلمتم سبب ما أقوم به، ولا ستوعبتهم موقفي. إنه كلب ديار ليلي. وما أكثر ما ذهب إلى تلك الديار، واستقر في مضارب ليلي، وذاد عنها في الليالي. فكيف لا أحبه!

والحاصل؛ إن كل أمر أحبه الله ورسوله ينبغي أن ينعكس على أحوالنا، وأفعالنا. ولذلك فإن أهل الله يشعرون بمتعة ولذة روحية تفوق الوصف في اتباعهم للقرآن والسنة وذلك فيما يتعلق بكل شأن من شؤون حياتهم، ابتداءً من طعامهم وشرابهم وإلى قيامهم وقعودهم. ومن جهة أخرى؛ إن أحد مقتضيات الحب الحقيقي هو حب ما يحبه المحبوب، وكره ما يكرهه. ولذلك إن كنا نحن بدورنا نحب الله ورسوله بحق فينبغي أن نجعل الحب في الله، والبغض في الله من الطباع والصفات الأساسية لشخصيتنا. فينبغي أن نحب من هو أهل للمحبة، ونكره من ليس بأهل لها، أي نكره أعداء الله ورسوله، والإسلام والمسلمين.

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

ويُعدّ الذم والتشنيع الذي ورد من الله تعالى في سورة "المسد" بحق أبي لهب بسبب إصرار الشديد على الكفر بالرغم من كونه عم النبي ﷺ من أبرز الأمثلة على هذه الحقيقة.

ولذلك ينبغي أن نحفظ أنفسنا من مدح أعداء الله ورسوله، وحتى من أدنى نظرة اهتمام إليهم. لأن هذه النظرات قد تزيد من اعتبارهم وبالتالي تكون سبباً لغضب الله تعالى.

ويُعتبر الحديث النبوي الآتي نموذجاً واضحاً على الموقف الواجب اتخاذه في مسألة البغض في الله:

"لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم ﷻ". ١٦٠

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"أيها المحب! لا غم إذا لم يطرأ الفتور على شيئين، أحدهما: متابعة صاحب الشريعة عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية. والثاني: الإخلاص والمحبة لشيخه. فلو طرأ ألوف من الظلمة مع وجود هذين الأمرين لا



يضر ولا يخاف من الضياع. ولو ظهر النقصان والعياذ بالله سبحانه في واحد من هذين الأمرين فخرسان بخسران، وإن كان المرء في حضور وفي حالة ذكر. فينبغي أن يطلب المرء من الحق ﷻ بالتضرع والابتهاال الثبات على هذين الأمرين، وأن يسأله سبحانه الاستقامة عليهما، فإنهما ملاك الأمر ومدار النجاة". ١٦١

ينبغي على المؤمن أن يبذل غاية جهده للسير على نهج النبي ﷺ وورثته الذين هم العارفون والعلماء. فإنه إن التزم هذا المسار فلسوف يجتاز حتى أشد الطرق ظلمة بسلامة، ويصل إلى باب السعادة الأبدية. وبالمقابل؛ فإن الإنسان الذي يسير دون مرشد ودليل يشبه القارب الذي تحطم مقوده. فهو يجنح ويسير إلى حيث تقوده الرياح، ويتحرك بحركتها، إلا أنه لن يجد الطريق المتجه إلى منزله المقصود بشكل من الأشكال. وعلاوة على ذلك؛ فإنه لن ينجو من الهلاك في متاهات مجهولة.

وعلى ذلك، ما ينبغي للمؤمن أن يستحسن حاله أبداً، ولا يعتبر مسلكه مقبولاً بناءً على ظنه. وإنما ينبغي

وَيَسِّرْهُ لَكَ وَيُخْرِجْكَ مِنْهُ بِحُكْمٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

أن يستعرض وضعه دائماً أمام مرآة استقامة، ويحاول العمل على تصحيح أخطائه. وأما مرآة الاستقامة التي سوف يستعرض نفسه فيها وتدله على عثراته لتصويبها فهي تتمثل بالنبي ﷺ الذي يُعد التفسير الحي والعملي للقرآن الكريم، وورثته من المرشدين الكاملين "العلماء العاملين" الذين يحرصون أشد الحرص على السير على نهجه المنير دون الشroud عنه قيد نملة.

فكما أن المريض لا يمكنه تشخيص داءه ومعالجة نفسه بنفسه من خلال قراءة كتاب طبي، فكذلك ليس بمقدور أي إنسان إصلاح نفسه بنفسه بمجرد قراءة الكتب. إنه لن يتخلص من الأمراض النفسانية مثل الغرور، والكبر، والعجب. فحتى الأطباء عندما يصيبهم المرض يلجؤون إلى أطباء آخرين ويخضعون للعلاج تحت إشرافهم. وكذلك ليس بإمكان أي قاض أن يحكم بنفسه في مسألة شخصية له، وإنما يتوجب أن يمثل أمام قاض آخر. فهذا هو سبب وجوب اتباع مرشد كامل والسير بدلالته من أجل الوصول إلى الكمال الروحي.



يبين مولانا جلال الدين الرومي - قدس سره - مدى أهمية الخضوع لتربية روحية على يد المرشد الكامل الذي يكون من ورثة النبي ﷺ، وذلك لتجاوز عوائق النفس والوصول إلى الحقيقة والمعرفة، فيقول: "كما لا يمكن لسكين أن يشذب مقبضه الخشبي من دون سكين آخر؛ فأنت أيضاً أيها الجريح اذهب واعرض جراحك على جراح للقلوب. فإنك لن تستطيع معالجتها بنفسك..."

"تعلم صحة الأحاسيس والأفكار الدنيوية من الطبيب، وتعلم صحة الإلهامات التي تسمو وتعلو بالمرء إلى الخلود من المرشد الكامل".

فمبقتضى قول رسول الله ﷺ:

"المؤمن مرآة المؤمن" ١٦٢

يصبح الأشخاص الكاملون مرايا نظيفة وبراقة لنا، وتشاهد أرواحنا جوهرها كينونتها الحقيقية في تلك المرايا البراقة. وإن المحرومين من مثل هذه المرايا لا يتمكنون من الوقوف على أخطائهم وملاحظتها، كما

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ قُلْ لَا يَنْفَعُكَ سَأَلُهُمْ بَلْ هُمْ أَصْفَاءٌ ۖ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

أنهم لا يستطيعون الاستفاقة من الغفلة التي يتوهمون فيها بأن التعاسة التي يعانون منها سعادة.

ومن جهة أخرى، فإن بعض الجهلة الذين سقطوا اليوم في مثل حفر الغفلة هذه يبدون ضعفاً كبيراً في امتحان الصدق، والإخلاص، والاحترام، والتسليم تجاه النبي ﷺ من خلال استخفافهم بأقواله وبسننه السنية. وكذلك فإن هؤلاء التعساء يتناولون بكل وقاحة وصفاقة على كبار الأولياء السائرين على نهج النبي ﷺ - وكأنهم قد بلغوا مراتب قلبية تخولهم تقييمهم ونقدهم - لا شك أن حالتهم هذه تُعد عمى قلبياً مريعاً. وذلك لأن قلة الأدب تجاه من أحبه الله من الأمور الجالبة للغضب الإلهي. حيث أن الله ﷻ قد بين بأنه أعلن الحرب على مرتكبي الجرمين الآتين:

الأول: الربا. حيث يقول الله ﷻ في القرآن العظيم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ١٦٣

أما الجرم الثاني: فهو إيذاء أولياء الله الصالحين بأي شكل من أشكال الأذى. فقد جاء في الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه:

"من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب..."^{١٦٤}

وينبغي أن نعلم بأنه لا يوجد على مر التاريخ أي كائن تمكن من تحقيق النصر في محاربته لله تعالى. وبناء على ذلك فإن الإقدام على تصرفات أو مسالك تعبر عن قلة الاحترام بحق أحباب الله ﷻ والاستهزاء بهم تعرض الإنسان لعذاب أليم لمساسها بغيرة الله ﷻ.

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"إن العجب يحرق الأعمال الصالحة كما تحرق النار الحطب. والعجب يتولد من استحسان الشخص لعمله. ولكي يتجنب المرء العجب ويتخلص منه فينبغي استحضار العيوب والأعذار الخفية أمام العين بشكل دائم من جهة، والنظر إلى الأعمال الصالحة نظرة النقصان والتقصير من جهة أخرى. وينبغي على المرء أن يستحي من إذاعة وإظهار أعمال الخير التي يقوم بها..."^{١٦٥}

١٦٤ البخاري: الرقاق، ٣٨.

١٦٥ محمد هاشم الكشمي: بركات (زبدة المقامات)، ص ٢١٧.

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

(ينبغي أن تكون النية في الأعمال الصالحة موجهة لنيل رضا الله تعالى فقط. وينبغي على العبد شكر ربه ﷻ لتوفيقه له إلى القيام بالأعمال الصالحة. ولأن مدح الذات والافتخار بالأعمال الصالحة يغير غاية تلك الأعمال فإنها لا تحقق أي أجر أيضاً. وذلك لأنه لا مجال ولا مكان للشراكة في عقيدة التوحيد.

وانطلاقاً من ذلك، فينبغي على المؤمن تجنب إطلاق اسمه على أي عمل خير يقوم به، مثل المسجد، أو معهد تدريس القرآن الذي يتولى بناءه. إلا أنه مع ذلك ليس هناك حرج أو حرمة في إطلاق اسمه على مثل هذه الأعمال من قبل محبيه بعد وفاته. بل على العكس إن ذلك يصبح وسيلة لذكره بالخير والترحم عليه. ولكن يُعد إطلاق الشخص لاسمه على عمل الخير الذي قام به خلال حياته، يُعد تصرفاً خاطئاً، لأنه يمس الإخلاص ويفسده.

وأصلاً من الصعوبة بمكان عند إقدام العبد على عمل صالح - مهما بذل من جهد وحرص - أن يؤديه خالياً ونقياً بتمامه من مظاهر القصور الظاهرية والباطنية. ولهذا ينبغي على العبد أن لا يضحك في نظره أي عمل

خير يقوم به مهما كانت أهمية ذلك العمل وحجمه، وإنما ينبغي أن يعترف بشكل دائم بقصوره وعجزه، ويسأل الله تعالى القبول بلطفه وكرمه. وينبغي أن لا ننسى أبداً بأن الأعمال الصالحة شأنها شأن الأدعية بحاجة ماسة لقبول الحق ﷻ لها. ولذلك فإن الحالة القلبية عند تقديم العمل الصالح لله تعالى تحمل أهمية بالغة في نظر المؤمنين العارفين بمقدار أهمية العمل ذاته. فيجب لجعل الأعمال الصالحة خالصة لوجه الله تعالى عدم خلط النية بأدنى ميل أو جنوح نحو جلب انتباه الأغيار لنيل الثناء والتقدير منهم. ولهذا ينبغي بذل الجهد لإخفاء الأعمال عن أنظار الناس كلما كان ذلك ممكناً. حيث جاء في الحديث المروي عن النبي ﷺ بأنه أحد السبعة الذين يظلمهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله يوم القيامة هو من تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه. ^{١٦٦}

ولكن يجوز المجاهرة بالإنفاق إن كانت هناك ضرورة، أو تحقق فائدة، مثل تشجيع الآخرين على



وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

الإنفاق. إلا أنه مع ذلك ينبغي في هذه الحالة الحرص أشد الحرص على حفظ النفس من الغرور والكبر، وتجنب كل ما من شأنه المساس بالإخلاص.

وبالإضافة إلى ذلك؛ يجب عند القيام بالأعمال الصالحة لجم أنفسنا حتى عن الثناء الذاتي، أي لا نشعر بالانتشاء والفخر بداخلنا، إلى جانب لجمها عن التطلع إلى نيل الثناء والتقدير من الآخرين. وأما العلاج الأنجع للجم وإسكات النفس في هذا الشأن فهو عدم نسيان العيوب والمساوئ الخفية التي نعاني منها. وإلا فلن يكون بالإمكان لجم النفس عن العجب، وبالتالي عن محق أجر الأعمال الصالحة.)

نسأل الله تعالى أن يجعل نياتنا وأعمال خالصة لوجهه الكريم لنيل رضاه، وأن يوفقنا نحن عباده العجز الضعفاء بلطفه وكرمه إلى الأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة التي يحبها ويرضاها. وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم، وأن يحفظنا جميعاً من الفتنة في ديننا، ومن الإفلاس في الآخرة.

آمين!..

حكم من أولياء الله

الإمام الرباني

مرحمة الله عليه

- ٥ -

"إن غاية التصوف ليست الوصول إلى الكشوفات، والكرامات، ومشاهدة عوالم مجهولة الكيفية. لأن هذه الأمور هي ضلال على طريق الرحلة الروحية، بحيث يمكن أن تزول وتفقد بأي لحظة من اللحظات.

إنما المقصود من حياة التصوف هو تحصيل قلب قد بلغ مرتبة السكينة والطمأنينة من خلال إيمان مغموس بالعشق، وعبادة مؤداة بانسجام وتناغم قلبي وبدني، وبأخلاق جميلة وحميدة مثيرة للإعجاب.

وإن كافة الغايات الأخرى غير هذه إنما هي عبارة عن أمنيات ورغبات وهمية فارغة تبعد العبد عن المقصود الأصلي...



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الإمام الرباني رحمته الله - ٥ -

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"ليس المقصود من سلوك طريق الصوفية مشاهدة الصور والأشكال الغيبية، ومعاينة الألوان والأنوار اللاكيفية فإن ذلك داخل في اللهو واللعب... أي نقصان في الأنوار والصور الحسيتين حتى يتركها الشخص، ويتمنى الصور والأنوار الغيبيتين بالقيام بالرياضات والمجاهدات، فإن هذه الصور والأنوار، وتلك الصور والألوان كلها مخلوقة الحق جل وعلا، ومن الآيات الدالة على وجوده تعالى...".^{١٦٧}

إن الغاية الأساسية في التصوف الذي هو رحلة تربية روحية هو الوصول إلى هيئة مقبولة في العبودية للحق وَعَلَيْكُمْ، وبلوغ كمال الإيمان، وبالتالي نيل رضا الله تعالى. وليست الغاية منه الوصول إلى الكشوفات، والكرامات،



وَسَيُجَنَّبُكَ

حَكَمٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

ومشاهدة العوالم المجهولة الكيفية. لأن هذه الأمور هي ظلال على طريق الرحلة الروحية، بحيث يمكن أن تزول وتفقد بأي لحظة من اللحظات.

وتشكل قصة بلعام بن باعوراء التي تحدث عنها القرآن الكريم مثلاً معبراً في هذا الخصوص. حيث أن هذا الإنسان لم ينج من التعرض للقهر والغضب الإلهي على الرغم من أنه قد أوتي الكثير من الكشوفات والكرامات لأنه مال إلى الدنيا، وغلبته شهواتها.^{١٦٨}

إن الأحوال الاستثنائية مثل الكشوف والكرامات تعطى لبعض العباد أحياناً كلطف إلهي، وأحياناً كامتحان إلهي، إلا أنها تعتبر مراحل يتوجب اجتيازها. فالانشغال بهذه المراحل والبقاء فيها يُبعد رحلة الحق عن مقصدها الأصلي.

ولذلك فإن أهل الله لم يولوا أهمية للكرامات المادية، وإنما ركزوا كافة جهودهم للمحافظة على "الاستقامة" التي هي الكرامة الأصلية.

١٦٨ انظر. الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦.



فقد روي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال:

"وصلت إلى نهر دجلة يوماً، وأردت العبور عليه إلى الضفة الأخرى، فإذا التأمت حافتا دجلة لأعبر. فقلت: - أنا والله لا أغتر بذلك! فإن الناس يعبرون على دجلة بنصف درهم، فإني لا أضيع عمري وحاصله (من العمل الصالح الذي صرت أعده منذ ثلاثين عاماً لأجل يوم المحشر) لأجل نصف درهم؛ فإني أريد الكريم لا الكرامة".^{١٦٩}

أي أن الأمر المهم بالنسبة للعبد هو السير بإخلاص وتواضع على طريق تحصيل رضا الله تعالى. وينبغي أن لا يغتر بالسراب والظلال الخداعة التي تظهر في هذه الرحلة.

ثم إن الوصول أو عدم الوصول إلى الكشف والكرامات في رحلة التقوى التي تهدف الانتقال من الإيمان وبلوغ الإحسان ليس المعيار الوحيد للارتقاء

١٦٩ انظر. فريد الدين عطار: تذكرة الأولياء، ص، ٢١٧، منشورات دار

العلم والثقافة، بورصة ١٩٨٤.

وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

الروحي. حيث ليس هناك روايات كثيرة تتحدث عن ثبوت كرامات مادية وظاهرية لأبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي يُعد أفضل البشر بعد الأنبياء والرسل كما جاء في الكثير من الأحاديث النبوية.^{١٧٠} فأعظم كرامة لأبي بكر رضي الله عنه هي تصديقه وإخلاصه المنقطع النظير لرسول الله وتسليمه، وطاعته الاستثنائية له. هي سريان كافة الخصائص والخصال النموذجية للنبي عليه الصلاة والسلام إلى شخصه وعلى أعلى الدرجات.

ومن هنا يظهر بأن بلوغ التكامل في رحلة التربية المعنوية والروحية دون الوصول إلى الكشف والكرامات خير وأفضل. وذلك لأن الذين يشهدون مثل هذه الأحوال قد يقعون ضحية الغرور بمقتضى صفاتهم البشرية، وبالتالي يجنحون إلى الوقوع في خطأ إنقاص همتهم، أي التخفيف من جهودهم المعنوية لاعتقادهم بأنهم قد بلغوا مرتبة التكامل ولم يعد هناك حاجة لبذل مزيد من الهمة والجهد الروحي.

١٧٠ انظر. علي المتقي: كنز العمال، ١١، ٥٤٩ / ٣٢٥٧٨؛ ابن ماجه:

المقدمة، ١١ / ١٠٦؛ أحمد: ١، ١٢٧، ٢، ٢٦.



بينما يأمر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم
بضرورة السعي وبذل الجهد في العبودية له حتى آخر
نفس في حياتنا، وذلك بقوله:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^{١٧١}

أما الذين يستمرون بصبر بالسير على الاستقامة
دون مشاهدة تجليات مثل الكشوفات والكرامات، فإنهم
يحذرون بشكل أكبر من الغرور، والكبر. ولأنهم ينظرون
إلى أنفسهم بنظرة التقصير بشكل دائم فإنهم يرغبون
بشدة بزيادة جهودهم وعزائمهم المعنوية والروحية،
وبإحساس العدم والخضوع التام أمام الله تعالى. حيث
يقول طه الحريري في معرض بيانه لهذه الحقيقة:
"إن حال السالك من أهل الكشف، والسالك
المحجوب عن الكشف كحال شخصين سائرين في
رحلة إلى الحجاز أحدهما بصير، والآخر أعمى. فكلا
الشخصين يقتربان باستمرار إلى غايتهم طيلة الطريق،
إلا أن ثواب الأعمى أكثر وأعظم. وكذلك الأمر في

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

السير والسلوك، حيث أن كسب السالك المحجوب عن الكشف وإن لم يظهر للعيان أكبر من السالك صاحب الكشف، وذلك لأن المحجوب في حالة ترقٍ مستمر".^{١٧٢}
وقد أوصى أبو الحسن الخرقاني أيضاً مريديه بـ "الخدمة" من أجل التكامل الروحي، وقال:
"إن أعظم كرامة هي خدمة مخلوقات الله تعالى دون كلل أو ملل".

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"بعد تحصيل جناحي الاعتقاد والعمل إذا كان توفيق الحق رفيقاً ودليلاً ينبغي سلوك طريقة الصوفية العلية (أهل التقوى)، لا لغرض تحصيل شيء زائد على ذلك الاعتقاد والعمل ونيل أمر جديد سواههما، إذ أن ذلك من طول الأمد المفضي إلى الزلل.

بل المقصود منها حصول اليقين والاطمئنان في المعتقدات، بحيث لا تزول بتشكيك مشكك، ولا تبطل بإيراد شبهة فان...".^{١٧٣}

١٧٢ بروفييسور. د. حسن كامل يلماز، السلسلة الذهبية، ص ٢٠٨.

١٧٣ الإمام الرباني: المكتوبات، ٢، ١٧٤، رقم ٢٦٦.



(المقصود من حياة التصوف هو تحصيل قلب قد بلغ مرتبة السكينة والطمأنينة من خلال إيمان مغموس بالعشق، وعبادة مؤداة بانسجام وتناغم قلبي وبدني، وبأخلاق جميلة وحميدة مثيرة للإعجاب. وبالتالي بذل الجهد للارتقاء إلى حالة العبد الذي يرضى الله ﷻ عنه. وإن كافة الغايات الأخرى غير هذه إنما هي عبارة عن آمنيات ورغبات وهمية فارغة تبعد العبد عن المقصود الأصلي.

ومن جانب آخر؛ فإن مسألة تمسك المؤمنين الذين نالوا حظاً من التربية الصوفية بعقيدتهم والإقبال على الأعمال الصالحة بزيادة أكبر، وتمكنهم من المحافظة على إيمانهم في مواجهة الظلم والضغوط والهجمات بشكل أكبر، هي حقيقة تاريخية.

إذ يلاحظ بأن أكثر الذين نجحوا بالمحافظة على هويتهم الإسلامية في الكثير من المجتمعات الإسلامية المنتشرة في العالم وعلى رأسها مناطق البلقان، والقوقاز، وآسيا الوسطى والدول الإفريقية التي تعرضت لسنوات طويلة لعمليات الصهر على يد الأنظمة الشيوعية

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

والملحدة من جهة، ولأنشطة المبشرين المكثفة من جهة أخرى هم من المؤمنين الذين تلقوا فيوضاً من الإقليم التصوفي. وذلك لأن غاية التصوف هي تقوية الإيمان في القلوب لدرجة تمكنها من الصمود أمام أعتى وأشد عواصف الكفر، والإلحاد دون أدنى تأثير أو اهتزاز.)

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"النصحية التي كنت أنصح بها الأصحاب ولا أزال أنصحهم بها إلى انقضاء عمري بعد تصحيح العقائد وفق ما في الكتب الكلامية المخصوصة بأهل السنة والجماعة شكر الله سعيهم، وبعد إتيان الأحكام الفقهية من الفرض، والواجب، والسنة، والمندوب، والحلال، والحرام، والمكروه، والمشتبه امتثالاً وانتهاءً، هي تحصيل سلامة القلب عن التعلق بما سوى الحق ﷻ..." ١٧٤

(إن أكثر أمر يتوقف عليه أهل الحق هو الثبات على الاستقامة في العبودية. حتى اعتبرت الاستقامة أكبر وأعظم كرامة. وأما أساس الاستقامة فهو أولاً تصحيح

العقائد وفق معايير وموازن القرآن والسنة، ثم اجتناب المحرمات والشبهات، والتحلي بالأخلاق الحميدة والمداومة على الأعمال الصالحة.

إن التمكن من تحصيل "القلب السليم" الذي أراده منا الله تعالى نحن عباده، أي الوقوف في حضرته بقلب مطهر ومنقى من الشوائب والكدورات، مرتبط بأدائنا لوظائف وواجبات العبودية الظاهرة والباطنة بإخلاص. فينبغي أن نبذل كل ما بوسعنا في هذه الأمور كي لا تمل قلوبنا لأحد غير الله تعالى، وتبلغ السكينة والطمأنينة بذكر الحق ﷻ...

وعلينا التمعن والتفكير ملياً بقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^{١٧٥}

ففي الحقيقة؛ إن كل ما يخطر في بال الإنسان من أفكار ووساوس هي خفية وسرية بالنسبة للكائنات المحيطة به، إلا أنها علنية ومعلومة لله تعالى وحده.

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

فينبغي عيش هذه الحياة على ضوء هذه الحقيقة. فيجب أن نجعل مشاعرنا وأفكارنا متوافقة مع رضا الحق ﷻ مثلها مثل أحوالنا وأفعالنا المادية الظاهرية، ونبعد قلوبنا عن الانشغال بسائر الأغيار عدا الله تبارك وتعالى.

يقول الإمام الرباني رحمته الله عليه:

"إنه لا يصدر عني من أعمال الخير إلا أنهم فيه نفسي، بل لا أستريح ولا يستقر قلبي إلى أن أتهم فيه نفسي وأراني كأنه لم يصدر عني عمل قابل لكتابة ملك اليمين، وأعتقد أن صحيفة يميني خالية عن أعمال الخير كتبها معطلون من الكتابة فكيف أكون مستحقاً لقبول الحق جل وعلا؟، وأعلم أن جميع من في العالم من كفار الإفرنج والزنادقة والملاحدة أفضل مني بوجوه، وشر الجميع أنا!"^{١٧٦}

(عندما تزداد سوية المرء المعنوية والروحية، فإن مشاعر الخشية والتعظيم تجاه الله ﷻ تزداد أيضاً. إذ أن الأنبياء والأولياء الصالحون الذين يُعدون أعلى الناس درجة وسوية من حيث معرفة الله تعالى يتضرعون إلى



المولى عليه السلام ويلتجئون إليه بمشاعر العجز، والتذلل، والخضوع أكثر بكثير من المذنبين الذي أسرفوا في المعاصي، وتفيض عيونهم على الدوام بدموع الندامة على شعورهم بالتقصير وهم يستغفرون ربهم ويتوبون إليه. لقد تعرض سيدنا إبراهيم عليه السلام لامتحان التضحية في سبيل الله تعالى في ماله، ونفسه، وأولاده. وقد أزاح كافة العروش الفانية التي في قلبه، وأبدى جهاداً وكفاحاً توحيدياً شاقاً ومريراً تجاه قومه الوثنيين. فأصبح "خليل الله" بالمحبة، والتسليم، والإخلاص الذي أظهره، ووصل إلى مرتبة أهل الله. إلا أنه على الرغم من بلوغ إبراهيم عليه السلام لهذه المكانة الرفيعة عند الله تعالى، فقد كان يتضرع إلى ربه بحالة فائقة من الخشية، والعجز، والخضوع أمام عظمته الإلهية، فيقول:

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾^{١٧٧}

لا ريب أن هذه الحالة من الخشية، والخوف، والخضوع التي تظهر لدى الأنبياء، وأولياء الله،

وَيَسِّرْهُ لَكَ وَيُخْرِجْكَ مِنْهُ بِحُكْمٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

والمؤمنين الصالحين هي علامة على قربهم من الحق
ﷺ، وعلى السوية العالية التي بلغوها في معرفة الله.

وذلك لأن الله ﷻ يقول في الآية المباركة:

﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ ١٧٨

المقصود من العلم هنا هو العلم بالله تعالى، إدراك
سمو وعلو عظمة وقدرة الله، وبالمقابل إدراك عجز
الذات؛ أي هو معرف الله تعالى.

يبين الله ﷻ حال عباده الصالحين الذين يتعبّدونه بمثل
هذه المشاعر من الخشية والخوف في كتابه العزيز، فيقول:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى
رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا
سَابِقُونَ﴾ ١٧٩

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

"سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية أهم الذين
يشربون الخمر، ويسرقون؟ فقال النبي ﷺ:

١٧٨ فاطر: ٢٨.

١٧٩ المؤمنون: ٦٠ - ٦١.

- لا يا ابنة الصديق! ولكنهم الذين يصومون،
ويصلون، ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم،
أولئك الذين يسارعون في الخيرات".^{١٨٠}

فبسبب هذا القلق والخوف الذي يسيطر على قلوب
أولياء الله، والصالحين والعارفين، فإنهم يتضرعون
ويبتهلون إلى المولى ﷻ بقولهم:

"سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، وما عبدناك
حق عبادتك"

أي؛ بينما لا يشعر العباد الغافلون حتى بأدنى
مشاعر من الخوف بشأن أكبر الذنوب التي يقتربونها،
فإن العباد العارفين يعيشون ضمن هالة كبيرة من القلق
والخوف والخشية بشأن قبول أعمالهم الصالحة وذلك
بسبب حالة خشية الله التي تقودهم إليها تجليات القدرة
والعظمة الإلهية.

وقد قال الإمام علي عليه السلام:

"لا تهتموا لقلة العمل، واهتموا للقبول".

وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

أي أن الأمر لا ينتهي بالانتهاء من القيام بالأعمال الصالحة. وإنما ينبغي الانتباه إلى مدى أدائها بإخلاص، وإبداء حرص شديد في تجنب كل الخصال السيئة التي من شأنها إضاعة أجر تلك الأعمال ومثل الرياء، والمفاخرة، والغرور، والكبر وغيرها.

إذا؛ إن من إحدى أهم غايات ومقاصد التربية التصوفية هي إكساب القلوب هذه المشاعر الرقيقة والحساسة ضمن توازن بين "الخوف والرجاء".

ولهذا فإن أهل الحق يرون أنفسهم بشكل دائم مقصرين وفي أدنى المراتب، على الرغم من سموهم إلى مواقع النجوم في سماء الروحانية. وبذلك فإنهم يتقون غفلة الوثوق بأعمالهم وبأحوالهم الفضيلة والركون إليها. ويتحلون بأدب تأمل المغفرة والرحمة من الله تعالى وحده للوصول إلى النجاة الأبدية.

وقد كان الإمام الرباني رحمته الله يطلب من تلامذته في المكتوبات التي يرسلها لهم الدعاء بحسن الخاتمة، أي أن لفظ الأنفاس الأخيرة والرحيل عن هذه الدنيا بإيمان سليم. ويقول في إحدى مكتوباته التي أرسلها لولده:



"ارحموا الصغار، ورغبوهم في قراءة القرآن، وأرضوا أهل الحقوق من جانبنا مهما أمكن، وكونوا ممدنين ومعاونين بدعاء سلامة الإيمان..."^{١٨١}

فهذه الحساسية القلبية بشأن لفظ الأنفاس الأخيرة بإيمان سليم، وأدب العبودية صفة مشتركة لجميع أهل الحق. ويجب علينا جميعاً أن نتخذ هذا الحس الإيماني نموذجاً ومثلاً لنا.

وانطلاقاً من ذلك ينبغي أن لا نتوانى في وقت من الأوقات عن ترديد الدعاء الوارد في الآية المباركة:

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^{١٨٢}

وذلك لأنه ليس لأحد ضمان بشأن لفظ النفس والرحيل عن الدنيا على الإيمان ما عدا الرسل والأنبياء، والذين بشروهم بذلك.

ونورد فيما يأتي حادثة معبرة عن هذه الحقائق بدرجة كبيرة:

١٨١ الإمام الرباني: المكتوبات، ٣، ١٦٩، رقم ٢.

١٨٢ يوسف: ١٠١.

وَسَيُجَنَّبُكَ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

لما توفي أبو بكر الوراق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي يُعد واحداً
من أهل الحق رآه أحد الصالحين في المنام. حيث كان
مصفراً الوجه باكياً حزيناً. فقال له:

- وما هذا الحال يا أبا بكر! أخير أم لا؟

فقال أبو بكر:

- أين الخير؟ وقد حاؤوا بعشر جنازات ليس فيهم
مسلم واحد! ١٨٣

نسأل المولى وَعَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكرمنا بحسن الخاتمة، وأن
يلحقنا بكرمه ولطفه بزمرة عباده الصالحين السعداء
الذين أمضوا عمرهم في جهاد تحصيل الرضا الإلهي،
ونالوا في الرmq الأخير سعادة وفرحة الوصل الأبدي.
آمين!..

١٨٣ انظر. العطار: تذكرة الأولياء، ص ١٨٩، منشورات الأرقم،
اسطنبول ١٩٨٤.

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ

الإمام الرباني

مرحمة الله عليه

-٦-

ذات يوم سوف يلف الكفن الذي هو الثوب الأخير
في سوق الحياة الفانية على جسد كل إنسان، وسوف
يختم الموت بخاتم الإبطال والإلغاء على كل
الصفقات، والرغبات والشهوات الفانية، والمباهج
البراقة المخادعة!

ولن يكون بالإمكان اعتباراً من تلك اللحظة وما
بعدها عمل أي شيءٍ لغد، ولن تنفع ندامة نادم.
ولذلك فإن يوم الإعداد لحساب يوصلنا إلى النجاة
في المحشر هو هذا اليوم الذي نحياه...



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الإمام الرباني رحمته الله - ٦ -

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"لا إله إلا الله؛ لا شيء أنفع من هذه الكلمة الطيبة في تسكين غضب الرب جل سلطانه وعلا برهانه، فإذا كانت هذه الكلمة سبباً لتسكين غضب دخول النار، تكون سبباً لتسكين غضبات أخرى بالطريق الأولى إذ أنها دون ذلك. وكيف لا تكون سبباً للتسكين وقد أعرض العبد عن كل ما سواه نافياً له بتكرار هذه الكلمة الطيبة، وجعل قبلة توجهه المعبود على الحق وكان منشأ الغضب هو التوجهات الشتى التي كان العبد مبتلى بها..."^{١٨٤}

(إن أعظم الذنوب التي تثير وتجلب غضب الحق وَعَلَيْكَ، وتبعد المرء عن العفو الإلهي هي: الكفر، والشرك، والإنكار. أي إنكار وجود الله وَعَلَيْكَ، أو جعل شريك له في الألوهية، أو إنكاره قلبياً حتى وإن بدا الظاهر مؤمناً به.

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

إن الأسباب الرئيسية لانحراف الإنسان المخلوق على الفطرة الإسلامية كي يعبد الله تعالى عن طريق الحق وسلوكه مسالك الباطل هي اتباعه للنفس، والشيطان، أو اتباع البشر الذين تلبسوا بلبوس الشيطان، وإيراد نفسه بيديه موارد الهلاك وظلمات الجهل. وأما ما يحجب عقل الإنسان، وقلبه في هذا الخصوص فهو في الغالب المنافع والمصالح المختلفة التي تظهر أمامه بغاية امتحانه وابتلائه.

تحمل القصة التي يرويها لنا فريد الدين العطار عبرة كبيرة في هذا الشأن:

كان للسلطان كلب صيد يحبه كثيراً، وكان ماهراً في الصيد. كان الملك يولي هذا الكلب أهمية بالغة ويقدره تقديراً عظيماً، فلا يخرج في رحلة صيد إلا ويصطحبه معه. وكان قد زين طوقه بالمجوهرات، ووضع في أرجله خلاخل من الذهب والفضة. وغطى ظهره بقماش من الأطلس.

وذات يوم كان السلطان قد خرج إلى الصيد مع رجال قصره وأخذ معه ذلك الكلب كعادته. كان السلطان



الذي يتقدم بهدوء وهو ممتطٍ ظهر حصانه بوقار وفي يده
الحبل الحريري المربوط بطوق الكلب في غاية الانتشاء
والانسراح. إلا أن شيئاً حدث فجأة وأفسد عليه نشوته
وبهيجته. إذ أن الكلب الذي أحبه كثيراً انشغل بشيء آخر
وكأنه قد نسي السلطان تماماً. حاول السلطان جاهداً
سحب الحبل الذي بيده لثني الكلب عما هو فيه وقد بدا
عليه الحزن، إلا أن محاولته باءت بالفشل، إذ أن الكلب
استمر بلعق العظمة التي أمامه ومحاولة قضمه. فما كان
من السلطان إلا أن صرخ وقد أحاطت به مشاعر الدهشة
والغضب:

- كيف يتم الانشغال في حضرتي بشيء آخر
والتغافل عني؟!

حزن السلطان وتأسف كثيراً. فقد أثر عليه نكران
الكلب، وعدم وفائه، وغفلته عنه. لم يُعذره السلطان، ولم
يعف عنه مع أنه مجرد كلب. إذ لم يكن انشغال الكلب
الذي تلقى قدراً كبيراً من الإحسان، والإكرام، والاهتمام
بعظمة فجأة، ونسيانه مما يُغفر. فقال بغضب وحدة:

- أطلقوا قليل الأدب هذا، وناكر الجميل!

وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى

ولما أدرك الكلب الغافل معنى هذه الحدة والغضب
كان الأمر قد فاتهُ، ولم يعد بالإمكان فعل شيءٍ. ثم قال
الرجال للسلطان:

- يا سيدي! لننزع ما عليه من المجوهرات،
والذهب، والفضة ثم نطلقه!
فقال السلطان:

- كلا! دعوه فليذهب كما هو! ثم أضاف:
- دعوه يذهب هكذا! دعوه ليهيم على وجهه غريباً
يعاني من الجوع والعطش في الصحاري الحارة والقاحلة؛
ولينظر إلى تلك المجوهرات فيعيش بحرقة وألم وندم
على النعيم والإحسان الذي أضاعه من بين يديه!..
إذاً؛ كذلك فإن أكثر ما يشير غضب الحق ﷻ هو
تعلق قلب الإنسان الذي خلقه من أجل تعبد ذاته العلية
بالكائنات والمخلوقات التي أوجدها لأجله، ثم إشاحة
وجهه عن خالقه ﷻ.

ولا يمكن أن يكون هناك نكران وجود أعظم من
نسيان الإنسان لخالقه، ومالكه الحقيقي، ورازقه، ثم
تأمل المدد من أبواب أخرى!..



ينبغي أن نتذكر ونعلم جيداً بأنه لو أنكرت البشرية جمعاء الحق ﷻ فإنه لا ينقص من شأن ألوهيته مثقال ذرة. والعكس صحيح أيضاً؛ أي لو آمنت البشرية كلها بوجود الله ﷻ ووجدانيته فلن يزيد هذا الإيمان من شأن ألوهيته مثقال ذرة. فالله ﷻ ليس بحاجة إلى عبوديتنا، إذ أنه منزّه عن كل الحاجات؛ وبالتالي فإن إيمان أو إنكار البشر لا ينفع ولا يضر إلا البشر وحدهم، وليس الله ﷻ. ومع ذلك؛ فإن الحق ﷻ بمقتضى رحمته الواسعة التي لا حدود لها يريد للإنسان الذي خلقه الهداية والسعادة. فهو يريد لهم أن ينالوا شرف الإيمان به، ليكونوا بذلك مستحقين للمكافآت والمكرّمات الإلهية. ولذلك فإن كلمة التوحيد التي تعني الإقرار بحقيقة عدم وجود إله غير الله تُعد أحب كلمة إلى الله ﷻ. وذلك لأن إدراك هذه الكلمة حق إدراكها، والتصديق بها قلبياً يعني:

- إشاحة العبد بوجهه عن الفسوق والفجور وعن كافة الأبواب الفانية، واللجوء إلى أعتاب ألوهية الحق ﷻ وحده.

وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اللَّهُ تَعَالَى

• رد ورفض الآلهة الباطلة التي هي بمثابة الخيال والأحلام، والتسليم للإله الحق الواحد الذي هو الله ﷻ.

• خلع واقتلاع الإنسان لكافة الروابط الشيطانية والنفسانية التي تحولت في عينه وقلبه إلى وثن، ثم تحصيل الحرية الحقيقية التي يمكنه أن يتذوقها في عبوديته للحق ﷻ وحده.

ولهذا السبب فإن الله ﷻ قد جعل الكثير من الناس الذين استحقوا عذابه الأليم مظهرًا لعفوه ومغفرته بسبب نطقهم بكلمة التوحيد، والدخول في إطاره. وكذلك فإن النبي ﷺ الذي تعرض لسنوات طويلة للظلم والاضطهاد على أيدي المشركين قد عفا عنهم لنطقهم بكلمة التوحيد وإعلانهم لندامتهم أمامه، وجعلهم من بين صحابته الكرام.

فمثلاً؛ بعد أن أدرك وحشي الذي قتل عم النبي ﷺ حمزة ﷺ حقيقة كلمة التوحيد، أقدم بالحماس الإيمان الذي ناله على قتل مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة وذلك بنية التكفير عما اقترفت يده قبلاً، وليخفف من اضطراب وحرقة الندامة التي تعتلج في قلبه. وفي نهاية



الأمر قد أصبح صحابياً مباركاً والذي سوف يظل يذكر من قبل المؤمنين بوحشي ﷺ إلى يوم القيامة.

وعلى ذلك فإن أفضل وسيلة يتوسل بها المؤمن لطلب العفو لنفسه هي قول "لا إله إلا الله". حيث أن هذه الجملة المباركة ترد في الكثير من أدعية التوبة والاستغفار.

فقد استجيب دعاء سيدنا يونس عليه السلام وقبلت توبته لتوسله بكلمة التوحيد "لا إله إلا الله". حيث جاء في القرآن الكريم:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. ١٨٥

(عندما أمر يونس عليه السلام بدعوة قومه الكافرين إلى الإيمان والمكوث فيهم أربعين يوماً، إلا أنه فقد الأمل من استجابتهم لإصرارهم على الكفر وغادرهم في اليوم السابع والثلاثين)

وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ تَعَالَى

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"ينبغي أن يعلم بأن فضيلة هذا الذكر "لا إله إلا الله" كبيرة بحيث لا مقدار لتمام الدنيا في جنبه ولا إحساس! وليت لها حكم القطرة بالنسبة إلى البحر المحيط! وعظمة هذه الكلمة "كلمة التوحيد" الطيبة باعتبار درجات قائلها، فكلما كانت درجة القائل أزيد وأعلى تكون تلك العظمة أكثر وأولى..."^{١٨٦}

(يبين الحديث النبوي الآتي قيمة وأهمية كلمة التوحيد هند الله تعالى، وتأثيرها الاستثنائي بشأن جلب العفو الإلهي:

فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال:

كنا عند النبي ﷺ فقال: هل فيكم غريب؟ يعني أهل الكتاب. فقلنا: لا يا رسول الله! فأمر النبي ﷺ بغلق الباب وقال: "ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله إلا الله!". فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع النبي ﷺ يده، ثم قال: "الحمد لله! اللهم بعثني بهذه الكلمة وأمرني بها، ووعدتني عليها



الجنة وإنك لا تخلف الميعاد!" ثم قال: "أبشروا فإن الله عز وجل قد غفر لكم".^{١٨٧}

والحادثة الآتية هي بدورها تبين القيمة والأهمية العظيمة التي تتمتع بها كلمة التوحيد عند الله ﷻ:

كان سيدنا سليمان عليه السلام الذي آتاه الله تعالى ملكاً عظيماً وسخر له الكثير من المخلوقات والكائنات يستعرض ذات يوم جيشه العظيم المؤلف من الجن، والإنس، والطير. فمر على وادي من النمل، ولما أبصر كبير النمل سليمان وجيشه وقد اقتربوا منهم قال للنمل: - يا أيتها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون! فهذا سليمان صاحب الملك العظيم الذي ليس له مثل!^{١٨٨}

فلما سمع سليمان عليه السلام الذي علمه الله لغة الحيوانات قول كبير النمل، قال:

- كلا! إن ملكي زائل! وأما الملك والسعادة التي تجلبها كلمة التوحيد فهي خالدة أبدية!

١٨٧ أحمد: مسند، ٤، ١٢٤.

١٨٨ انظر. النمل: ١٧ - ١٨.

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

"من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة".^{١٨٩}

فحتى ينال المرء هذه البشارة النبوية، ويبلغ الملك والسعادة الأبدية فلا بد له من بذل الجهد والسعي لتكون حياته متوافقة مع مضمون كلمة التوحيد حتى الرmq الأخير من عمره. أي إذا نبذ العبد سائر الآلهة الظاهرة والباطنة ما عدا الله ﷻ، وملأ قلبه بالإيمان بالله تعالى، عاش عمره على هذا المنوال حتى آخر نفس في حياته فعندها يُؤمل أن يلفظ روحه على الإيمان وينال الجنة الأبدية. ومن الصعوبة بمكان - ما عدا بعض الاستثناءات - أن يتمكن من عاش حياته عكس هذه الحقيقة من النطق بـ "لا إله إلا الله" في أنفاسهم الأخيرة عند خروج الروح. لأنه ورد في حديث نبوي آخر:

"كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تحشرون".^{١٩٠}

١٨٩ الحاكم: المستدرک، ١، ٥٠٣.

١٩٠ المناوي: فيض القدير، ٥، ٦٦٣.



يقول عبيد الله أحرار رحمه الله:

"بعدما توفي الشيخ النقشبندي رآه أحد الأولياء في منامه، فسأله: ماذا نفعل من أجل نجاتنا الأبدية؟، فأجابه الشيخ بقوله: انشغلوا بما يجب الانشغال به في النفس الأخير!. أي كما ينبغي التفكير بالله تعالى وحده في النزاع الأخير، فكونوا كذلك متيقظين ومتفكرين بالله تعالى مدى الحياة!".^{١٩١}

ولهذا يجب أن يكون استعداد الإنسان مدى الحياة وبشكل دائم متجهاً لهدف مفارقة الحياة على الإيمان. وأما خلاف ذلك، أي تأمل النجاة الأبدية فقط بالتلفظ اللساني بكلمة التوحيد دون عيش حياة عبودية تحت مظلة ومضمون كلمة التوحيد بمثابة السعي خلف السراب المخادع.

فقد سئل الإمام الزهري الذي يُعد من كبار علماء التابعين عن الحديث النبوي:

"من قال: 'لا إله إلا الله دخل الجنة'. فقال الإمام:



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

- إنما كان هذا في أول الإسلام قبل نزول الفرائض، والأمر والنهي.^{١٩٢}

أي من الضروري بعد اكتمال الدين مراعاة كافة الأحكام الواردة في الكتاب والسنة، وعيش حياة تحت مظلة كلمة التوحيد. وذلك لأن الله تبارك وتعالى قد بين في كتابه العزيز عدم إمكانية ضمان الخلاص الأبدي بمجرد النطق اللفظي بكلمة التوحيد دون تطبيق مضمونها ومقتضياتها على أرض الواقع في الحياة، فقال: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^{١٩٣}

ومن جانب آخر؛ يُروى بأن هذه الآية الكريمة قد نزلت بحق بعض الصحابة الكرام الذين تعرضوا لمختلف أنواع الظلم والعذاب والاضطهاد بسبب إيمانهم. وهذه الرواية تبين بشكل واضح بأن للإيمان الحقيقي ثمن يتطلب أدائه. ولأجل ذلك فإن القرآن الكريم يخبرنا

١٩٢ الترمذي: الإيثار، ١٧ / ٢٦٣٨.

١٩٣ العنكبوت: ٢.



بقصة سحرة فرعون الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل إنقاذ إيمانهم، وبقصة أصحاب الأخدود الذين أُلقي بهم في خنادق النار لعدم تنازلهم عن عقيدتهم، وبقصة حبيب النجار الذي استشهد رجماً بالحجارة في سبيل دفاعه عن عقيدة التوحيد.

ومن جهة أخرى؛ فإن قيمة وعظمة كلمة التوحيد في الميزان الإلهي سوف تكون بحسب الدرجة الروحية لمن نطق بها كما قال الإمام الرباني رحمته الله. وبناءً على ذلك ينبغي التعمق القلبي في معنى كلمة التوحيد وحقيقتها. حيث قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي يُعد أحد الصحابة الكرام الذين قطعوا مراحل روحية متقدمة في ظل التربية النبوية معبراً عن هذه الحالة: "لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل".^{١٩٤}

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"إن المقصود من ذكر "لا إله إلا الله" هو القضاء على الآلهة الباطلة الآفاقية والأنفسية، أي الخارجية



وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

والداخلية. فأما الآلهة الآفاقية فهي آلهة الكافرين والمشركين؛ مثل اللات، والعزى. وأما الآلهة الأنفسية فهي رغبات وشهوات النفس. حيث يقول الله ﷻ:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^{١٩٥}

التكاليف الشرعية، والإيمان الذي هو عبارة عن التصديق القلبي كافيان للقضاء على الآلهة الآفاقية. وأما بالنسبة للقضاء على الآلهة الباطلة الأنفسية فيجب تزكية النفس الأمانة.

وهذا الأمر غاية ونتيجة الدخول إلى سبيل أهل الله وسلوكه. فالوصول إلى الإيمان الحقيقي مرتبط بالقضاء على هذين الصنفين من الآلهة الباطلة...".^{١٩٦}

إن ذكر كلمة التوحيد يبدأ بلفظ "لا إله"، أي برد ونبذ كافة الآلهة الباطلة. الآلهة الباطلة والأصنام التي في العالم الخارجي بيئة وظاهرة للعيان، ولإثبات الإيمان شرعاً يكفي رد سائر آلهة الكافرين، والمشركين، أو الوثنيين الباطلة، والإيمان بالله تعالى إلهاً واحداً. إلا أن

١٩٥ الجاثية: ٢٣.

١٩٦ المعارف اللدنية: ص ٦٩، قسم ٢٤.



هذا الأمر ربما هو الجزء السهل نسبياً لمسألة الوصول إلى حقيقة التوحيد. وأما القسم الأصعب والأهم فهو تحطيم الأصنام والأوثان الكامنة في العالم الداخلي للإنسان، والتمكن من التسليم لله تعالى وحده.

إذ أن هذا هو المعنى والحكمة من قول النبي ﷺ لما عاد من غزوة تبوك التي كانت بالغة الصعوبة والمشقة على المؤمنين لأصحابه:

"... رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه".^{١٩٧}

ولذلك فإن تزكية النفس وتنقية وتطهير العالم الداخلي من الأصنام الباطنية مسألة شاقة، إلا أنها مهمة أولى وألزم.

وجاء في القرآن الكريم:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾^{١٩٨}

١٩٧ انظر. البيهقي: الزهد الكبير، ص ١٩٨ / ٣٧٤؛ السيوطي: الجامع،

٢، ٧٣ / ٦١٠٧.

١٩٨ الأعلى: ١٤ - ١٥.



وَسَيُجَنَّبُكَ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وقد فسر ابن عباس رضي الله عنه كلمة "تزكى" الواردة في الآية الكريمة بقول الإنسان "لا إله إلا الله".^{١٩٩} لأن الخطوة الأولى على طريق التزكية هي تطهير القلب من الكفر والشرك.

إذاً؛ فما هي الأصنام التي يجب إزالتها من العالم الداخلي للعبد؟

- هي في بعض الأحيان الرغبات والشهوات النفسية التي تحتل مكانة أكثر أهمية لدى العبد من تنفيذ أوامر الله تعالى.
- وفي بعض الأحيان تكون جملة من المنافع الفانية التي يجب على العبد تركها في سبيل الله تعالى، ولكنه لا يتركها. وتفضيل الدنيا على الآخرة عندما تناقض إحداهما الأخرى.
- وأحياناً تكون مقاماً - مكانة تبعد العبد عن ربه.
- وتكون أحياناً شهرة وثروة تنسي العبد خالقه ﷻ.
- وأحياناً تكون الشهوة.



لقد أصفى الله سبحانه وتعالى على المحرمات
والخطايا قوة جذب كبيرة بمقتضى سر الامتحان
الإلهي. وإن وقاية النفس من هذه الجاذبية تتطلب قوة
وصلابة إيمانية كبيرة.

جاء مشركو مكة ذات مرة إلى النبي ﷺ وطلبوا منه
التخلي عن محاربة أصنامهم مقابل العرض الآتي الذي
عرضوه عليه:

(إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً
جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً! وإن كنت
تريد به شرفاً سودناك علينا! حتى لا نقطع أمراً دونك!
وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا! وإن كنت تريد
النساء زوجناك أجمل نساء العرب!

فكان رد النبي عليه الصلاة والسلام:

"ما بي ما تقولون؛ ما جئت بما جئتم به أطلب
أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن
الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن
أكون لكم بشيراً (بالجنة إن قبلتم) ونذيراً (من النار)

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّكَ بِالْعَمَلِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

إن أبيتُم)، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن
تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة،
وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني
وبينكم" (٢٠٠)

لا شك أن مثل هذه العروض والإغراءات لم تؤثر
ولو بقدر مثقال ذرة على النبي عليه الصلاة والسلام
المرسل بمهمة القضاء على الأصنام الظاهرية، وكذلك
بمهمة تطهير النفوس من الأصنام الباطنية. إلا أن التاريخ
البشري يمتلئ بعدد لا يُحصى من المخدوعين وأصحاب
الإرادات الضعيفة الذين لبوا نداء الدنيا لأنفسهم فنسوا
الآخرة، وانغمسوا في الأهواء والشهوات والرغبات
الفانية.

فقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

"إني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى
عليكم الدنيا وتنافسوها" (٢٠١)

٢٠٠ ابن اسحاق: السيرة، ص ١٧٩؛ ابن هشام: ١، ٢٩٥ - ٢٩٦؛ ابن

كثير: البداية، ٣، ٩٩ - ١٠٠.

٢٠١ البخاري: المغازي، ١٧؛ مسلم: الفضائل، ٣١.



والحاصل؛ إن أكثر إله باطل عكف الإنسان على تعبد تاركاً مولاه وخالقه ﷻ هو "نفسه". هو القرارات الكيفية التي تمنعه من تنفيذ أوامر الله تعالى، هو قوله "برأيي" الذي يخالف ويناقض الحقائق الإلهية، هو الآراء الشخصية الارتجالية التي لا توافق أحكام الإسلام، هو أداء العبادات ليس بنية تنفيذ أوامر الله تعالى، وإنما بنية ممزوجة بأهداف ومقاصد دنيوية دنيئة، مثل اكتساب مكانة بين الناس الفانين، أو عدم فقدان أهميته ومكانته بينهم، أي أداء العبادة رياءً، لا إرضاءً لربه ﷻ.

فقد جاء في القرآن الكريم:

﴿أَرَأَيْتَ (أيها النبي) مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ؟ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا؟﴾ ٢٠٢

وجاء في حديث نبوي شريف:

"ما تحت ظل السماء من إله يُعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع." ٢٠٣

٢٠٢ الفرقان: ٤٣.

٢٠٣ الهيثمي: ١، ١٨٨.



وَيَسِّرْهُ لَنَا وَيَشْرِئْهُ لَنَا
حَكَمٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وبناءً على ما تقدم؛ فإن تزكية النفس بالتربية الروحية، وتنقيتها من الشوائب والأدران تُعد وظيفة في غاية الأهمية والضرورة. وذلك لأنه لا يمكن الوصول إلى حقيقة كلمة التوحيد إلا من خلال ذلك.)

نسأل المولى ﷺ أن يوفقنا جميعاً إلى ذكر كلمة التوحيد حق ذكرها. وأن ييسر لنا الوقوف على حقائق وحكم التوحيد، ويجعل حياتنا كلها بسائر أحوالنا وأفعالنا وأقوالنا وفقاً لمعايير وموازين التوحيد، وأن يرزقنا سلامة الإيمان وحسن الخاتمة عند الممات.

آمين!..



حكم من أولياء الله

الإمام الرباني

مرحمة الله عليه

-٧-

إن كل جلسة محفوفة بالفيوض والروحانية هي بالأساس نسمة رحمة قد وصلت إلى يومنا هذا من مجالس صحبة رسول الله ﷺ ونشوة عصر السعادة. تماماً كما يتم إيقاد الشمعات بشمعة أخرى، إذ إن الشعلة التي توقد الشمعات وتضيء بواسطتها ما حولها هي الشعلة ذاتها.... وإن المؤمن إن استنار بآخر هذه الشمعات، فإنه يصبح وكأنه قد اقتبس النور من المصدر الأول...



حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الإمام الرباني رحمته الله - ٧ -

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"إن الوقت وقت الذكر، واجعلوا الأهواء النفسانية داخلية تحت "لا" من كلمة التوحيد حتى تكون منتفية بالتمام، ولا يبقى مراد ومقصود (نفساني) في الصدر... وينبغي أن لا يكون في جانب الإثبات من الكلمة الطيبة، أي "إلا الله" من كلمة التوحيد شيء غير غيب الهوية "الله عز وجل" الذي هو وراء المعلومات والمتخيلات التي هي الدار والقصر والبئر والبستان والكتب وأشياء أخرى سهلة. ينبغي أن لا يكون شيء مزاحماً لوقتكم!" ٢٠٤

(ينبغي إزالة ومحو كافة الأصنام والأوثان، والأهواء الفانية، والنفسانية من القلب بعبارة "لا" التي في كلمة التوحيد، وإحلال محبة الله تعالى وحده وتثبيتها في القلب بعبارة "إلا". فيجب أن لا يوجد في القلب أي



وَسُبْحَانَكَ حُكْمٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

محبة تتناقض مع محبة الحق ﷻ أبداً. وخاصة ينبغي
إزاحة الأنانية والأغراض والأهواء الدنيوية.

فقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

"لا يزال قول لا إله إلا الله يرفع سخط الله عن العباد
حتى إذا نزلوا بالمنزل الذي لا يبألون ما نقص من دينهم
إذا سلمت لهم دنياهم، فقالوا عند ذلك "لا إله إلا الله"
قال الله: كذبتهم".^{٢٠٥}

لأن عقيدة التوحيد لا تحتل أن يكون هناك شريك
فيها أبداً وبأي شكل من الأشكال. أي كما أن المسلم
الذي يُعد من أهل التوحيد يرد سائر الآلهة الباطلة
التي في العالم الخارجي ويؤمن بربه ﷻ وحده كإله
واحد لا شريك له، فينبغي عليه كذلك أن يراعي معنى
التوحيد وروحها في الذكر الذي هو أخص لقاء له مع
الله تعالى وأثناء سائر العبادات الأخرى. يجب أن لا
يدخل الأفكار الفانية والنفسانية بينه وبين الله تعالى،
وأن يتجنب بحرص شديد كل الأحوال والأفعال التي
تمس وتخدش جوهر التوحيد.



وورد في حديث نبوي آخر:

"إن أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراف بالله ، أما
إني لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ، ولكن
أعمالاً لغير الله ، وشهوة خفية".^{٢٠٦}

لأن الإخلاص ، أي أداء العبادات لله تعالى وحده
لا يمكن أن يتحقق بالكامل إلا عن طريق الوصول
إلى حقيقة التوحيد ، فقد أصبح هذا الأمر إحدى أكثر
المسائل التي توقف عليها أهل الله . حيث أن المرحوم
نجيب فاضل يتناول هذا الأمر في أحد أشعاره التي
يصور فيها "جنود القلب" من أهل الحق ، فيقول:

إذا ما تسرب إلى عباداتهم شيءٌ من حظوظ النفس ،
فإنهم يقضونها ويعيدونها مراراً وتكراراً .

وإذا ما انحرفت أعينهم لحظة نحو الأغيار ، فإن
جزاءها يكون الدموع مدى العمر .

ليس همهم الجنة ولا النار ، وإنما غايتهم هي رضا
الله وحده .

وَسُبْحَانَكَ حُكْمٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

إذا؛ إن جوهر كلمة التوحيد هو تطهير القلب وتنقيته من من كل الأغيار، أي من كل ما سوى الله ﷻ. وذلك لأنه بعد تخصيص القلب لله تعالى وحده يبدأ بتلقي الأحاسيس من إقليم معرفة الله، ويصبح نيل الألفاف الإلهية سهلاً وميسراً.

فكما أن حزم أشعة الشمس تتجمع وتتركز في نقطة واحدة عندما نضع أمامها عدسة المكبر، ثم تحرق كل ما يصادفها من الأعشاب والحطب وتحولها إلى رماد، فكذلك ينبغي على كل مؤمن أن يكثف كلمة التوحيد في قلبه ويسلطها على الرغبات والشهوات النفسية المتجمعة فيه ليظهره وينقيه منها.

يتبين من خلال عبارات أسعد أربيلي الآتية لزوم بذل الجهد والسعي للعيش وفق ما ينسجم مع كلمة التوحيد وذلك في الاعتقاد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وباختصار في كل حياة العبودية، حيث يقول: "إنني ما زلت أحاول إكمال إيمان أخيكم العاجز هذا. وأجهد لذكر كلمة التوحيد بالحال واللسان (بالبدن ولسان القلب)، لأنه إن وُجد في القلب مطلوب - صنم بلسان الصوفي - ما عدا الحق ﷻ



فمن الصعوبة بمكان نطق "لا إله إلا الله" (بكيفية تمكن الوصول إلى حقيقة كلمة التوحيد). وحتى إن تكرر ذكر هذه الكلمة في الظاهر، فهناك شبهة في أن تصبح وسيلة للوصل وجديرة بالقبول معنى وروحاً". ٢٠٧

يقول الإمام الرباني رحمه الله:

"الفرصة قليلة، وصرفها إلى أهم المهام ضروري، وهو صحبة أرباب الجمعية (صحبة الصالحين).

لا تعدل بالصحبة شيئاً أياً ما كان. ألا ترى أن أصحاب رسول الله ﷺ فضلوا بالصحبة على من عداهم سوى الأنبياء عليهم السلام". ٢٠٨

(إن الشرط الأول للاستفادة من "الصحبة" التي هي إحدى أهم وسائل التربية الروحية هو إدراك أهميتها وقيمتها.

ينبغي أن نعلم في البدء أن الصحبة هي منهج نبوي في التربية. فقد ربي النبي ﷺ الصحابة الكرام وأنشأهم خير نشأة بالصحبة.

٢٠٧ محمد أسعد الأرييلي: مكتوبات، ص، ٦٣، رقم ٣٥.

٢٠٨ الإمام الرباني: المكتوبات، ١، ٤٢٨، رقم ١٢٠.

وَسَيُحْكِمُ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

فتفرع كلمتي "الصحابي" و "الصحبة" من الجذر ذاته دليل واضح وجلي على أهمية هذا الأمر. أي أن ما جعل الصحابي صحابياً هو نيله نصيباً من فيوض وروحانية الصحبة مع النبي ﷺ بإيمان صادق وخالص.

ولهذا فإن الصحبة تُعد سنة مؤكدة. أي هي ليست فرضاً ولا واجباً، ولكنها سنة قوية واطب عليها النبي ﷺ باستمرار ونادراً ما تركها حتى لا تتحول إلى أمر قطعي. إن النبي ﷺ لم يعط كل صحابي كتاباً أو دفترًا، وإنما أولى أهمية أكبر للصحبة والمعية القلبية.

وذلك لأن الصحبة هي تعليم وجهاً لوجه. لقد كان في هذا التعليم إلى جانب أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وتقديره تأثير كبير ومهم لأحواله والذي ينعكس إلى الخارج من محياه المتبسم ونظراته المنيرة وكان يشعر بهذا التأثير العجيب الذي يصعب وصفه بالكلام كل من حوله. وكما كان الصحابة الكرام يستفيدون من أقوال النبي ﷺ المباركة ضمن إطار قرب الصحبة، فإنهم كانوا يستفيدون من أحواله هذه أيضاً وكل بحسب استعداده وقدراته الروحية. ونتيجة لذلك فقد نال الصحابة الكرام



باتجاه التحلي بحال النبي ﷺ حظوظاً بدرجات متفاوتة حسب ملكاتهم واستعدادهم، وملؤوا قلوبهم بروحانية رسول الله ﷺ.

وبسبب هذه الفضيلة التي نتجت عن نيل صحبة النبي ﷺ فلا يمكن أن يرتقي أحد من الصالحين الذين جاؤوا بعد الصحابة - حتى وإن زادت عباداتهم عليهم - أن يرتقي إلى مرتبة الصحابة.)

يقول الإمام الرباني رحمه الله:

"إن مدار الإفادة والاستفادة في هذه الطريقة على الصحبة، ولا يكتفي فيها بالقول والكتابة".^{٢٠٩}

(في المصاحبات المعنوية والروحية، وكذلك في المعية الكلامية والعلمية يحدث تدفق للفيوض والروحانية من القلوب إلى القلوب. وبالأصل؛ فإن هذا الأمر هو أهم فائدة لمجالس الصحبة. أي سريان الأحاسيس الإيجابية من الحاضرين في حلقات الصحبة إلى بعضهم البعض.

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

لأنه يتم في المصاحبات الروحية تأسيس خط تبادل روحي بين القلوب، مثل مبدأ الأنابيب الموحدة^{٢١٠} في الفيزياء. وتسري الأحاسيس من هذا الخط، ومع مرور الزمن تبدأ كفيات القلوب بالتشابه فيما بينها، فتتطابق الأذواق، والمشاعر، والآراء والأفكار.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^{٢١١}

وذلك لأن اكتساب الصدق، أي التحول إلى إنسان صادق نتيجة طبيعية وبديهية لهذه المعية القلبية.

وأساساً هناك ميل إلى التوحد في الكون كله. وهذه خاصية متولدة عن وحدة أصل الوجود. فمثلاً؛ إذا أريق قارورة عطر في إحدى زوايا الغرفة فإن رائحة

٢١٠ مبدأ الأنابيب الموحدة: يُطلق على عدد من الأنابيب المختلفة عن بعضها والموحدة بين قواعدها من الأسفل الأنابيب الموحدة. حيث أن السائل المصبوب في أحد هذه الأنابيب الموحدة يتدفق إلى الأنابيب الأخرى، ويستمر هذا التدفق حتى يتساوى مستواه مع مستويات السائل في هذه الأنابيب.

٢١١ التوبة: ١١٩.



ذلك العطر يستمر بالسريان من ذرات الهواء الممتص لها إلى ذراته الأخرى حتى يتساوى توزع الرائحة بين كل ذرات هواء تلك الغرفة.

إن هذه الخاصية المنطبقة على كافة الأضداد مثل الحر والبرد، والنور والظلام، تُعد مبدأ سارياً على عالم القلب أيضاً ما عدا ما هو مخصوص بعالم المادة فقط. يقول الشيخ النقشبندي محمد الخادمي الذي يُعد من كبار علماء الدولة العثمانية:

"الأحوال سارية، حيث أن أحوال الذي يحضرون جلسات الألفة والصحبة تسري من أحدهم إلى الآخر... فطبائع الناس ميالة إلى التشبه ببعضهم، ومتابعة وتقليد الآخرين. والطبع يتطبع بطباع الآخرين دون أن يلاحظ صاحبه ذلك..."^{٢١٢}

وقد قيل في المثل الشعبي أيضاً: "هناك طريق من القلب إلى القلب". إلا أن الوسطة الأهم التي تزيد السراية الكائنة بين القلوب هي المحبة. وعلى ذلك

٢١٢ أبو سعيد محمد الخادمي: "رسالة النصائح والوصايا المباركة"، مجموعة الرسائل، ص ١٣٠ - ١٣١، إسطنبول، المطبعة الأميرية.



وَسَيُحَكِّمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اللَّهُ تَعَالَى

ينبغي في المصاحبات الروحية إبقاء القلب في حالة يقظة وتلقٍ دائم من خلال إحاطته بمشاعر المحبة، والاحترام، والأدب. بمعنى؛ لا تكفي المعية المادية في الصحبة، وإنما ينبغي أن تكون هناك معية قلبية أيضاً.

وقد كانت مجالس صحبة رسول الله ﷺ تجري في مثل هذا الجو القلبي. فعندما كان النبي ﷺ يتحدث بحديث كان الصحابة الكرام يصغون إليه بكليتهم وكأنهم لا يريدون أن تفوتهم ولو كلمة واحدة. ويعبرون عن حالة الأدب والسكينة التي كانت تهيمن عليهم في مجالس رسول الله ﷺ بقولهم:

"كأن على رؤوسنا الطير".^{٢١٣}

وتُعد الحادثة الآتية مثلاً بارزاً ومعبراً عن كيفية استفادة الصحابة الكرام من مجالس صحبة النبي ﷺ:

كان ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ حيث كان قد أعتقه من الرق. ولم يكن يمتلك من الدنيا شيئاً، حتى

٢١٣ انظر. أبو داود: السنة، ٢٣ - ٢٤ / ٤٧٥٣؛ ابن ماجه: الجنايز، ٣٧؛ ابن سعد: ١، ٤٢٤.

ربما خيمة واحدة. إلا أنه كان يأتي إلى النبي ﷺ، ويحضر مجالسه، ويستمع إلى أحاديثه بكل وجد وشوق، وكان كأنه يتقلب من حال إلى حال باللذة المعنوية والروحية التي ينالها من صحبة النبي عليه الصلاة والسلام.

وذات يوم كان ثوبان رحمه الله في مجلس النبي ﷺ وأخذ ينظر إلى حبيب الله بتأمل يفوق الخيال، وقد بدت عليه علامات التأثر والحزن، وتغير لونه، حتى أن حالته المهمومة والمحزونة لفتت انتباه النبي ﷺ المبعوث رحمة للعالمين. فسأله بإشفاق ورحمة:

- ما بك يا ثوبان، وما غيّر لونك؟

فقال ثوبان رحمه الله:

- يا رسول الله! إنك أحب إلي من ولدي، ومن نفسي، ومن الدنيا كلها. وما بي مرض ولا وجع، غير أنني إذا لم أراك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أنني لا أراك إن دخلت الجنة في منزلة أدنى من منزلتك، لأنك ترفع مع النبيين، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبدًا!

وَسَيُجَنَّبُكَ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

فسكت فخر الكائنات عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم لحظات، ثم بشره بقوله:

"المرء مع من أحب".^{٢١٤}

ونزل في ذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^{٢١٥}

إذا؛ كان كل هم الصحابة الكرام وسعيهم وجهدهم موجهاً نحو استدامة صحبة رسول الله ﷺ في الآخرة، هذه الصحبة التي نالوا حظاً منها في الحياة الدنيا. ولذلك فقد عملوا على الإبقاء على صحبتهم مع رسول الله ﷺ بأعلى مستوياتها ومراتبها بصورة دائمة. فعاشوا معه بصحبة الحال، وصحبة الفعل، وصحبة المشاعر، وصحبة الفكر. وشعروا بلذة ومتعة لا توصف في طاعتهم لله ولرسوله، وكانوا ممتنين للتضحية بكل

٢١٤ البخاري: الأدب، ٩٦.

٢١٥ النساء: ٦٩. انظر. الواقي: ص ١٧٠.



شيء في سبيل الله تعالى. لقد أقيمت كافة أساسات هذا الانكشاف الروحي في حلقات الصحبة.

ولذلك ينبغي الدخول إلى مجالس الصحبة الروحية بوجد وشوق العبادة، وينبغي إصغاء السمع إلى ما يقال فيها ببالغ الانتباه والأدب حتى وإن كان الموضوع المطروح معلوماً من قبل. وذلك لأن المصاحبات الروحية تذكير لمن يعلم، وتعليم لمن لا يعلم، والأهم من كل ذلك هي فرصة ثمينة للاستفادة من الفيوض القلبية لمصاحبة الصادقين. ونورد فيما يأتي جملة من الحوادث التي تبين هذه الحقيقة:

كان الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله الذي يُعد من كبار الأئمة المجتهدين يكثر من زيارة بشر الحافي، ويقول له:

- يا بشر! حدثني عن ربي.

حتى كان يقول له تلامذته:

- أنت عالم في الحديث والفقه، ولك اجتهاد في الدين، وفي أنواع العلوم، بل لا نرى لك نظيراً في العلم في عصرك، وتتردد إلى مجنون هائم؟ هذا لا يليق بجنابك!

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

فكان الإمام يقول لهم:

- في جميع ما عدتكم أنا أعلم منه، لكن هو أعرف
مني بالله تعالى. ٢١٦

وقد كان يحضر مجالس الشيخ سامي أفندي رحمته الله
كبار الشخصيات من أهل العلم والفضل في عصره.
وقد كان هؤلاء الشخصيات الذين ربما تفوقوا على
الشيخ في العلوم الظاهرية يجلسون في حضرته بأدب،
وتواضع، وسكينة كبيرة ملتزمين صمتاً مطبقاً، ويتذوقون
ضمن أجواء الصحة الروحية والقلبية ما لم يستطيعوا
العثور عليه في مناظراتهم، وبين سطور كتبهم.

ومن هذا المنطلق فإن كل مؤمن - سواء أكان عالماً
أو جاهلاً - بحاجة إلى الفيوضات القلبية للمصاحبات
الروحية على مدى سنين عمره. ولا تنتهي هذه الحاجة
في أي وقت من الأوقات أبداً. وإن الحادثة الآتية تبين
هذه الحقيقة بصورة جلية:



كان أحد تلامذة الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمه الله قد ترك مجالسه. وذات يوم التقى الشيخ بذلك التلميذ، فسأله:

- لم فارقتنا، وتركت مجالسنا؟

فأجابه التلميذ:

- يكفيني ما تلقيته وتعلمته منك من العلوم والمعارف حتى الآن، فلم يعد لي حاجة عندكم.

أحزن هذا الرد الشيخ أبا الحسن، فقال له:

- انظر يا بني! لو أن الاكتفاء بالفيوض والعلوم المأخوذة ضمن مدة محددة صحيحاً للزم أبا بكر الصديق رضي الله عنه الاكتفاء بالفيوض والعلوم التي تلقاها من النبي صلى الله عليه وسلم. (لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد نقل كل ما في قلبه إلى قلب أبي بكر رضي الله عنه)، إلا أن أبا بكر رضي الله عنه لم يستغن يوماً عن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يفارق النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى. (وحتى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان يشاق طيلة حياته إلى الدفن بجانبه).

لم يكن الصحابة الكرام يودون إمضاء وقت طويل

بعيدين عن رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن نظراته، ومحرومين

وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

من سماع وصاياه ونصائحه الفياضة بالحكم، وكانوا
ينبهون أبنائهم أيضاً إلى هذا الأمر. فيا ترى أين نحن
وأبنائنا من هذا الإحساس السامي للصحابة الكرام؟ وما
مدى المساعي والجهود التي نبذلها في سبيل حضور
مجالس العارفين والعلماء الذين يُعدون بمثابة ورثة
رسول الله ﷺ، والاستفادة منها؟

يقول إسماعيل حقي البورسوي:

"وإن كانت فرصة الحضور في مجلس النبي ﷺ
وصحبته قد فاتت، فإن إمكانية الحضور "الصحبة" مع
سنته الشريفة ومحبي سنته ما زالت قائمة. ولسوف
تستمر إلى يوم القيامة. فالحضور في مجالس الكبار،
والقرب من المتقين فياض بالروحانية".^{٢١٧}

وبالتالي فإن المصاحبات الروحية التي يراعى
آدابها تعد انعكاساً عن مجالس صحبة رسول الله ﷺ.
فكل جلسة محفوفة بالفيوض والروحانية هي بالأساس
نسمة رحمة قد وصلت إلى يومنا هذا من مجالس



صحبة رسول الله ﷺ، ونشوة عصر السعادة. تماماً كما يتم إيقاد الشمعات بشمعة أخرى، إذ إن الشعلة التي توقد الشمعات وتضيء بواسطتها ما حولها هي الشعلة ذاتها.... وإن المؤمن إن استنار بآخر هذه الشمعات، فإنه يصبح وكأنه قد اقتبس النور من المصدر الأول.

ولهذا فإن الذين يحضرون مجالس الصحبة الروحية ينبغي أن يلتزموا أدباً وتعظيماً كبيراً كما لو أنهم يحضرون إحدى حلقات صحبة النبي ﷺ لكي يكون هناك تدفق للفيوض والروحانيات إلى قلوبهم من ذلك المنبع...

يقول الإمام الرباني رحمته الله:

"من المعلوم أن هذه الدنيا هي دار عمل، وليست دار راحة وتوقف. فينبغي أن توجهوا كافة جهودكم نحو العمل. ودعوا المتعة والراحة والتسلية جانباً!.. وليكن الكسل والتهاون من نصيب الأعداء! ينبغي الإقدام على الأعمال الصالحة، ثم الإقدام عليها، ثم الإقدام عليها..."^{٢١٨}

وَسَيُحَكِّمُكُمْ فِي شَأْنِكُمْ
حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

(ينبغي على المؤمن أن يستغل رأسمال الوقت أحسن استغلال وهو مدرك تماماً فناء الدنيا، وأبدية الآخرة. وينبغي أن لا ينسى أبداً بأن الدنيا بمثابة مزرعة تحتاج إلى كد وعمل ونشاط كبير، وأن محصول هذه المزرعة الذي إما يكون سيئاً أو جيداً سوف يحصده في الآخرة. وأساساً؛ فإن الإنسان الذي يدرك هذه الحقيقة لا يمكن أن يضيع حتى دقيقة واحدة بالكسل والتهاون.

إلا أنه على الرغم من معرفة الناس لكل هذه الحقائق، فإن غالبيتهم لا يفلحون في النجاة من الضعف في تنفيذ مقتضياتها. ولهذا فإن المعرفة وحدها غير كافية، وإنما ينبغي العمل بإخلاص.

ذات يوم سئل إبراهيم بن أدهم رحمه الله:

ما لنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟

فقال لأنكم:

"عرفتم الله، ولم تؤدوا حقه!

زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ، وتركتم سنته!



قرأتم القرآن، فلم تعملوا به!
أكلتم نعم الله، ولم تؤدوا شكرها!
قلتم إن الشيطان عدو لكم، ولم تخالفوه!
قلتم إن الجنة حق، ولم تعملوا لها!
قلتم إن النار حق، ولم تهربوا منها!
قلتم إن الموت حق، ولم تستعدوا له!
دفتم موتاكم، ولم تعتبروا بهم!
فكيف يستجاب لكم؟! ٢١٩

إذا؛ إن المعرفة وحدها غير كافية، وإنما يجب العمل بإخلاص... فانتظار نتيجة إيجابية دون بذل جهد، وتأمل الرحمة من غير تحمل المشاق، وتمني الوصول إلى النعمة دون السعي ومواجهة الصعاب ليس إلا كمن يأمل إشباع بطنه بطعام غيره، فهو أمل وانتظار عبثي لا طائل منه. فلا يمكن الوصول إلى المكافآت الأخروية للإيمان دون القيام بالتضحيات التي يستوجبها في الدنيا.



وَسَيُجَنَّبُكَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ حُرُمَاتٍ كَمَا اتَّخَذَ اللَّهُ حُرُمَاتٍ كُنْ تَعْلَمُ ۚ

حَكَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

ولذلك ينبغي أن نسعى جاهدين إلى القيام بالأعمال الصالحة التي يوجبها الإيمان قبل نفاد وانقضاء نعمة العمر.

فيجب أن نقوم بتطبيق أو يبحث دائم وفي كل لحظة من لحظات عمرنا عن الأعمال الصالحة التي ستكون وسيلة لنيل رضا الله تعالى، وذلك بمقتضى الأمر الإلهي القائل:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ ٢٢٠

نسأل الله تعالى أن ييسر لنا جميعاً قضاء عمرنا في رضاه، وأن يبشرنا بالسعادة الأبدية في آخر أنفاسنا، ويكرمنا بجوده ولطفه بحياة أخروية مطمئنة ومتوجة بوصله والنظر إلى جماله...

آمين!..



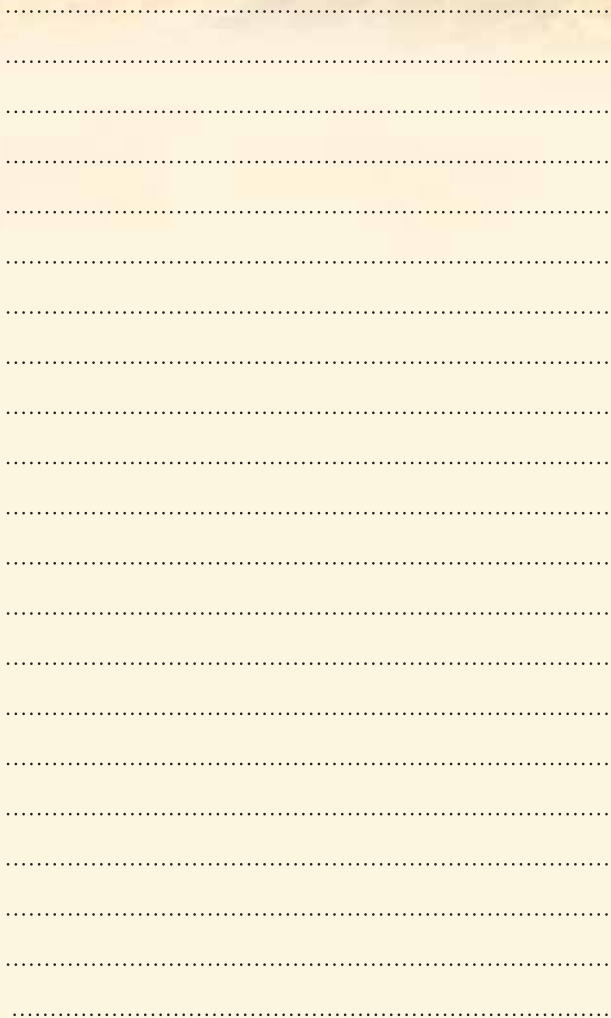
فهرس

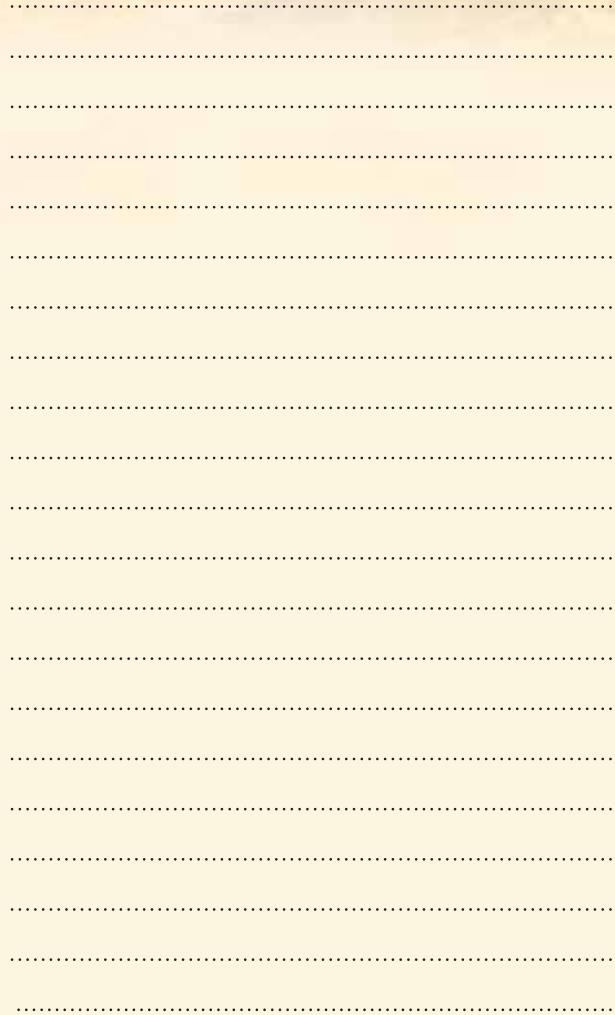
مقدمة.....	٥
الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي رحمه الله.....	١٥
علاقاته مع السلاطين.....	٢١
اتباع الشريعة قبل كل شيء.....	٣٢
أهل السنة والجماعة.....	٣٨
دقته وحرصه على اتباع السنة النبوية.....	٤٠
عبادته.....	٤١
أخلاقه الحميدة.....	٤٩
عجز العقل وضرورة النبوة.....	٥٢
كلمة التوحيد والذكر الدائم.....	٥٦
اللقمة الحلال.....	٥٨
أهمية الصحبة "المجالسة".....	٥٩
استغلال الفرصة.....	٦٠

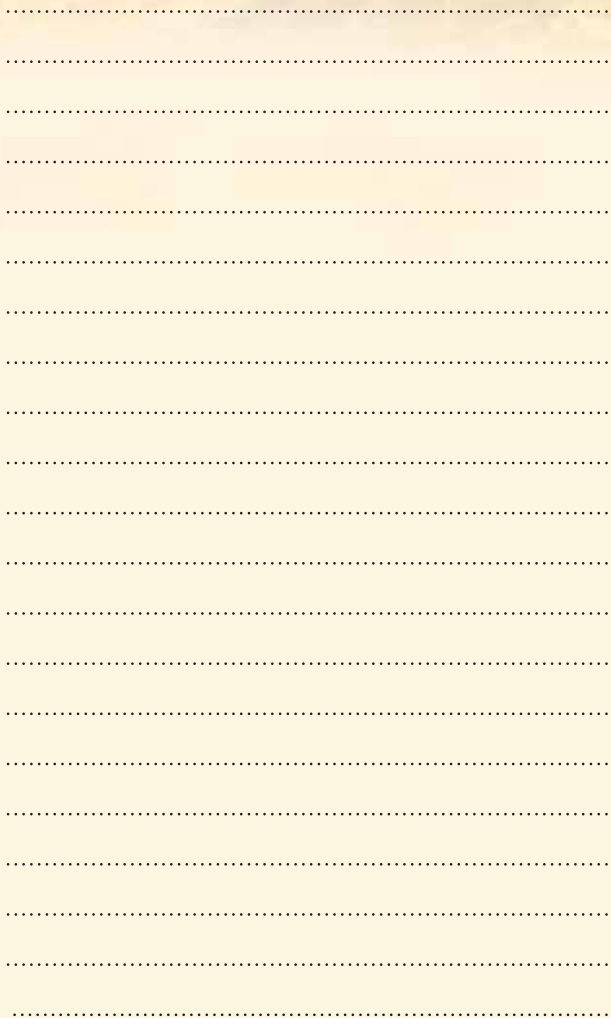


- ٦٣..... ترك النفس
- ٦٥..... وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ
- ٧٢..... جملة من نصائحه الحكيمة
- ٧٧..... الإمام الرباني رَحِمَهُ اللَّهُ - ١ -
- ١٠٣..... الإمام الرباني رَحِمَهُ اللَّهُ - ٢ -
- ١٢٧..... الإمام الرباني رَحِمَهُ اللَّهُ - ٣ -
- ١٤٩..... الإمام الرباني رَحِمَهُ اللَّهُ - ٤ -
- ١٧١..... الإمام الرباني رَحِمَهُ اللَّهُ - ٥ -
- ١٨٩..... الإمام الرباني رَحِمَهُ اللَّهُ - ٦ -
- ٢١١..... الإمام الرباني رَحِمَهُ اللَّهُ - ٧ -









دار الأرقم
للنشریات والمطبوعات



يمكنكم الآن تحميل حوالي ١١٨٠ من الكتب الإسلامية
بـ ٥١ لغة من الانترنت مجاناً

الانكليزية - الفرنسية - الإسبانية - الروسية - الإيطالية - البرتغالية - الألمانية - العربية - الأثرية - الباكستية - البنغالية - البوسنية - البلغارية - الصينية
التتارية القرم - الهندية - الماليزية - الرومانية - المونغولية - المورو - التركمانية - التوغولية - السواحلية - المالاجية - الأماهيرية - الصينية التقليدية - الكورية الجنوبية
الأوكرانية - الأوورية - الأوزبكية - البولندية - الفرنسية - الأوردية - السلوفينية - الكندية

www.islamicpublishing.net

